الطبعة الثانية

نازح من جازان

مفاجآت التمرد الحوثي على الحدود السعوديّة



مدارك

هادي فقيهي

هادي فقيهي

نازح من جازان

نازح من جازان

الكتاب:
نازح من جازان

المؤلف:
هادي فقيهي

التصنيف:
دين ومجتمع - سياسة

الناشر: مدارك إبداع، نشر، ترجمة وتعريب

الطبعة الثانية، مارس (آذار) 2011م

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9953-566-24-5

صورة الغلاف: خالد الخميس

الكتاب متوفر على الإنترنت:
مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com



Tel.: 009611282075 - Fax: 009611282074
Gharios Center. Forn Elchebbak. Beirut - Lebanon
www.mdrek.com - read@mdrek.com

إهداء

إليها، وقد وقفتْ طويلاً تودّع جدران بيتها، وحزن يعتصر لحظاتها الأخيرة هناك!

فارقته نازحة.. ولم تعد، ولم يعد المكان يشبه شيئاً من تفاصيل طفولة في أحضانها، وفي أحضان السيل والطين والريحان!

أمي... رحمها الله

أما قبل،

أمام نقطة التفتيش الواقعة على مدخل محافظة الحرث، لم يكن اجتياز هذه النقطة يشبه أية نقطة تفتيش أخرى في هذا الوطن!

ابتسم لنا الجندي الذي يقف سائلاً كل من يحاول العبور عن مبرر وتصريح. بعد أن تأكد من بطاقتنا الشخصية سمح لنا بالمرور بعد أن تلقى تعليمات ـ صدرت بوساطة ـ بعدم الاعتراض.

إنها نقطة التفتيش ذاتها التي عبرتها مئات المرات طوال عقدين من الحياة بين أحضان هذه القرى، غير أن هذه المرة لم تكن كسابقها. كانت رحلة لاستكشاف الذكريات المزروعة في طين هذه الأرض.

ما فعلت به الحرب؟ وما الذي أبقته من تفاصيل المكان باقياً على سوقه؟ وما الذي اختطفته مدافع الحرب كما تختطف الأرواح التي يجمعها سوء طالعها بها في طريق واحد.

خلف هذا الحاجز الأمني ستة آلاف أسرة تسأل ذات السؤال صباح مساء كل يوم: متى العودة؟ وأمامه 240 قرية كتب لها تاريخ جديد بعد أن انفلتت الحرب عن حدودها التي احتضنتها لخمس سنوات، ونادتنا للرحيل.

يبدو الطريق كما هو، ولكن الأرض تبدو غير الأرض. عن يمين وعن شمال آثار لمعسكرات الجنود ومخيماتهم، وبقايا مدافع وآليات عسكرية لم تبرح أرض المعركة.

في هذا الطريق لا تجاورك إلا آليات الجيش ذهاباً وإياباً.

نقطة تفتيش أخرى عند مقر قيادة عسكرية. نستقل بعده طريقاً يتجه نحو الشمال، ومعه تكشف الحرب عن آثارها. الصمت يصمُّ الآذان! وقبل لم تكن تعرف هذه القرى الصمت. هي الآن مدن أشباح معطلة، نُهبت منازلُها وبقيت جدران متهالكة تحنّ إلى ساكنيها.

نتوقف عند قرية يشقها طريق. كانت هذه القرية كما عرفتها، نابضة بالحياة، تطل اليوم بوجه بشع، آثار تخريب ودمار في كل شبر، وتفاصيل لم تعد تشبه تلك المخزّنة في الذاكرة! نصل إلى «الخشل» وواديها الشهير «الدحن» الذي كان ذات يومٍ مقصد السياح من كل أنحاء المنطقة. لا تستقبلنا سوى دورية أمنية ومحلات تجارية نُزعت أبوابها ونوافذها وسُلب كل ما فيها، وآثار الرصاص تملأ المكان!

يتجه الطريق جنوباً، وتبدأ الحرب تكشف عن أبشع ما تركته في هذه القرى التي يدمن أهاليها السمر والعشق والفرح. هم اليوم استبدلوه بالانتظار والأسئلة! نصل إلى «الجابري» ونسير حذرين خشية انفجار لغم ما زال ينتظر ضحية مؤجلة، وخشية انبعاث رائحة الموت من بقايا الدمار في كل شبر من هذه القرية. إنها لم تعد تشبه القرية التي زرتها قبل عام! سقط برج الماء معلمها الشهير، دُكّت مدرستها ومركزها الصحي، وتناثرت بيوتها حطاماً، وتحته تناثرت أرواح وجماجم. الموت مرّ من هنا! وأخاله اتخذ هذا المكان وطناً!

نتوقف على طرف وادي «دهوان» حيث تقع أشلاء قرى كانت تنتفض حياة ومغنى. مزارع ما تزال تنتظر الحصاد منذ عام، وصمت يسكن القرى كأنها المقابر. دون اختيار يجتاحك الحزن على تفاصيل لم تعد توجد إلا في الذاكرة!

نصل إلى «الخوبة» حاضرة «الحرث» وفيها تدبّ آثار حياة انطفأت للتوّ بعد عودة موظفي الدوائر الحكومية الذين وحدهم يسكنون هذا المكان. كثيرها مرهقة بآثار الرصاص وبيوت نهبت ومحلات تجارية كسرت! وحيوات انتزعت في ليل المعارك.

نمرُّ بسوق «الخوبة» الشهير الذي أصدرت الحرب بحقه مرسوم صمت، وهو الذي لم يصمت منذ قرن كامل. بقايا ذكريات لبائعي الموز والحناء والفل والكاذي تنبعث من الذاكرة وتختلط بصورة ماثلة لآثار حرب أعادت تشكيل المكان.

نعود قافلين تسابقنا آليات الجيش ونتحسس أنوفنا بحثاً عن رائحة الموت في هذا المكان. نتلو الصلوات على أرواح الشهداء الذين سقَوا الأرض دماً، ونسابق الشمس وهي تستعد للمغيب وتسجيل خروجها من فوضى المكان!

نصل إلى ذات نقطة التفتيش ويعاود ذات الجندي الابتسام، غير أنَّا لا نقوى على الابتسام هذه المرة. مشغولون بإعادة ترتيب الذاكرة وما تحمله من تفاصيل وفقاً لمشاهد كشفت للتوّ عن مكان ولد من جديد. ولد وهو يحمل الموت في أنفاسه!

نتنهد على أمل أن تعيد خطط إعادة تأهيل القرى وتعويض المتضررين شيئاً من البريق لهذا المكان!

هادي فقيهي

يناير (كانون الثاني) 2011

هوامش منصصة

1 ـ محافظة الحرث:

تبعد محافظة الحرث السعودية (في جازان) المتفيئة بظلال المرتفعات اليمنية المطلّة عليها من الشرق عن مدينة جازان نحو 60 كيلومتراً. ويقدَّر عدد سكانها بنحو 50 ألف نسمة. وتمتاز بمناخها المعتدل شتاءً والحار صيفاً، مع هطول الأمطار بشكل مستمر وخصوصاً في فترة الصيف، مما ساعد في ازدهار نشاط الزراعة. ويُعدّ القمح والذرة والسمسم والدخن أهم المحاصيل الزراعية، إلى جانب أنواع متعددة من الفواكه، كالموز والمانجو والخضراوات. وتمتاز محافظة الحرث، التي تم تأسيسها بحاضرة الخوبة مع بداية توحيد المملكة العربية السعودية في عام 1932م، بوجود عدد من المواقع السياحية التي تشهد إقبالاً كبيراً عندما تهطل عليها الأمطار. ومن أهم هذه المواقع: العين الحارة، ووادي الدجن، ووادي دهوان، ووادي ذهبان، وجبل جحفان، وحجر سعيدة، والحصون، وسوق الخوبة الشهير.

2 ـ حركة التمرد الحوثي:

حركة تمرد مسلحة تتمركز في محافظة صعدة. خاضت ست

حروب متتالية مع الحكومة اليمنية من العام 2004 إلى 2010. وفي نوفمبر (تشرين الثاني) من عام 2009، نشبت حرب بين الحوثيين والسعودية بعد مقتل جندي سعودي في منطقة على الحدود بين السعودية واليمن. تتبنى الحركة المذهب الشيعي الاثني عشري، وترفع في معاركها شعار «الموت لأمريكا والموت لإسرائيل»، ويعود أصل الحركة إلى نشاط ديني ثقافي بدأ في صعدة في ثمانينات القرن الماضي، ثم تحول إلى حزب سياسي في تسعينات القرن نفسه تحت مسمى حزب الحق، الذي نجح في انتخابات 1993. وكان قائد حركة التمرد حسين الحوثي الذي قتل في سبتمبر (أيلول) 2004 عضواً في مجلس النواب بعد الوحدة اليمنية. وفي يناير (كانون الثاني) من العام 2010 توقفت آخر حرب بين الحركة والحكومة اليمنية بعد أن قبلت الحركة بشروط فرضتها الأخيرة.

3 ـ جبل دخان:

يقع على الشريط الحدودي بين المملكة واليمن، ويخلو من السكان نظراً لطبيعته الجغرافية، إذ يبلغ ارتفاعه نحو 2000 متر عن سطح البحر، ويقع شرق قرية الراحة السعودية المتاخمة تماماً للقرى الحدودية اليمنية وغرب قرية الغاوية السعودية. وفي نوفمبر (تشرين الثاني) من العام 2009 أعلن الحوثيون السيطرة على الجبل، ما اعتبرته السعودية انتهاكاً لسيادتها على حدودها،

وردّت بتحرك عسكري ضخم، ودخلت في حرب مع الحوثيين امتدت لثلاثة أشهر.

ويُعدُّ الجبل موقعاً استراتيجياً لإطلالته على كثير من القرى المحيطة به، ويشرف على مساحة كبيرة من الحدود السعودية اليمنية.

4 ـ الشريط الحدودي:

ويُقصد به الحدود السياسية الفاصلة بين اليمن والسعودية، التي تمتد بطول 1300 كيلومتر انطلاقاً من البحر الأحمر إلى منتصف الربع الخالي. ويقع الشريط الحدودي في منطقة جبلية شديدة التعرجات بين الدولتين. ويُعد الجزء الواقع بين جازان ومحافظات صعدة وحجة الشمالية في اليمن مسرحاً واسعاً لعمليات التسلل غير المشروعة وتهريب المخدرات والسلاح والاتجار بالبشر. وأصبح الشريط الحدودي يمثل أهمية أمنية متزايدة مع انتشار خطر القاعدة في اليمن ومحاولتها تنفيذ هجمات إرهابية في السعودية.

5 ـ القات:

نبات مخدِّر ينمو على شكل شجيرات يتراوح طولها بين مترين وخمسة أمتار، ولونها أخضر بني مع القليل من الحمرة. يُزرع في اليمن وإثيوبيا (الحبشة). ويتم تعاطي القات بصورة

كبيرة في كافة أنحاء اليمن وفي منطقة جازان جنوب السعودية. وفي حين أن تناول القات وترويجه وزراعته نشاط مسموح في اليمن، فإن السعودية تصنّفه كمخدر وتعاقب مروّجيه ومتعاطيه بعقوبات تصل إلى السجن لعدة سنوات. وتعدّ محافظة صعدة المحاذية للحدود بين السعودية واليمن أشهر مناطق زراعة القات في اليمن، في حين لا يزرع القات في السعودية إلا في أجزاء محدودة من جبال فيفا في شرق جازان، ويتم تهريبه يومياً بصورة كبيرة عبر الشريط الحدودي. ومن أشهر أنواعه الشعفي والنضيري والشامي والجحاشة والحرامي.

6 ـ صعدة:

تقع محافظة صعدة في الجزء الشمالي من اليمن، وتبعد عن العاصمة صنعاء حوالي 243 كيلومتراً، ويتجاوز عدد سكانها 600 ألف نسمة. تشتهر بتضاريس جبلية شديدة الوعورة والارتفاع ومن أشهر جبالها جبال «مران» و«خولان» و«الشعف» و«النضير» و«رازح» و«شدا». تشتهر بزراعة القات وأجود أنواع البن والعنب. طبيعتها السكانية ذات تركيب قبلي، وتشتهر بوجود أكبر سوق مفتوحة للسلاح في المنطقة وهو «سوق الطلح». ومنذ العام 2004 شهدت المحافظة ست حروب بين حركة التمرد الحوثي والحكومة اليمنية مما ساهم في تدمير البنية التحتية في المحافظة بصورة كبيرة.

الحدود... جرح ملتهب

إن كان ثمة جزء يسبب القلق لصانع القرار الأمني في العاصمة السعودية الرياض فلن يكون سوى الحدود المترامية مع جاراتها السبع.

وإن كان ثمة جزء يجمع من المشاكل والقضايا الأمنية في مساحة محصورة فهو بكل تأكيد الحدود السعودية اليمنية في الجزء الواقع بين محافظة صعدة وجازان.

شريط حدودي ينطلق من البحر ولا يتوقف إلا على قمم شاهقة تكاد تبلغ 3000 متر ارتفاعاً عن سطح البحر، شديد التعرج والكثافة السكانية، وهو يعدّ اليوم ـ بحسب صحيفة النيويورك تايمز في 27 أكتوبر (تشرين الأول) من 2010 ـ من أخطر المناطق في العالم، والتي تشكل مسرحاً لعمليات القاعدة التي يزداد نفوذها في اليمن، ولتجارة البشر والمخدرات. إنها ليست أفغانستان التي نقرأ عن أخبار اضطراباتها، وليست العراق التي أنهكتها الحرب! إنها المنطقة التي قضيت فيها 18 عاماً من أعوامي الأولى من الحياة في قرية صغيرة على بعد 16 كيلومتراً من اليمن. قرية بمجرد أن تدخلها تلوح لك جبال صعدة واضحة

التضاريس، وتنقطع عنك شبكة الهاتف المحلية، ويستقبل جوالك رسالة تقول لك «مرحباً بك في الجمهورية اليمنية»، حيث تغطية شبكة الجوال اليمنية تفوق الشبكات السعودية قوة.

مرت الحدود السعودية اليمنية لتصل إلى شكلها النهائي الحالي بعدة اتفاقيات. فقد جرى توقيع أول معاهدة لترسيم الحدود بين السعودية واليمن في 19 مايو (أيار) 1934 في مدينة الطائف وعرفت باسم «معاهدة الطائف». وجاء في نص هذه المعاهدة التي كانت بين الملك عبد العزيز آل سعود ـ ملك السعودية ـ والإمام يحيى بن محمد حميد الدين ملك المملكة اليمانية: «رغبة منهما في إنهاء حالة الحرب التي كانت قائمة ـ لسوء الحظ ـ فيما بينهما وبين حكومتيهما وشعبيهما، ورغبة في جمع كلمة الأمة الإسلامية العربية ورفع شأنها وحفظ كرامتها واستقلالها. ونظراً لضرورة تأسيس علاقات عهدية ثابتة بينهما وبين حكومتيهما وبلديهما على أساس المنافع المشتركة والمصالح المتبادلة، وحباً في تثبيت الحدود بين بلديهما، وإنشاء علاقات حسن الجوار وربط الصداقة الإسلامية فيما بينهما وتقوية دعائم السلم والسكينة بين بلاديهما وشعبيهما، ورغبة في أن يكونا عضواً واحداً أمام الملمات المفاجئة، وبنياناً متراصاً للمحافظة على سلامة الجزيرة العربية؛ قرّرا عقد معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية فيما بينهما».

وجاءت المعاهدة في ثلاث وعشرين مادة أساسية، ملحق بها

خمس مواد عرفت بمسمى «عهد التحكيم». وتنص المعاهدة في مجملها على إنهاء حالة الحرب بين البلدين في ذلك الوقت، وبناء علاقات استراتيجية وطيدة، وترسيم الحدود بين البلدين وتكوين صداقة إسلامية وأخوة عربية.

وفي عام 1995 تم توقيع مذكرة تفاهم بين البلدين، جاءت في خمس مواد نصت على تمسك الطرفين بشرعية وإلزامية معاهدة الطائف الموقعة في عام 1934، وتشكيل لجان مشتركة من الطرفين تكون مهمتها تجديد العلامات المقامة طبقاً لتقارير الحدود الملحقة بالمعاهدة ـ الموجود منها والمندثر ـ وذلك ابتداءً من نقطة الحدود عند رصيف البحر تماماً حتى آخر نقطة سبق ترسيمها في جبل الثأر، واستخدام الوسائل العلمية الحديثة لإقامة العلامات الحدودية وذلك بالاتفاق مع شركة متخصصة لتنفيذ ذلك. كما عالجت المذكرة مشكلة الحدود التي لم يتم ترسيمها بين البلدين في معاهدة الطائف، وترك أمرها ودّياً، حيث نصت المذكرة على تحديد الإجراءات اللازمة والخطوات التي تؤدي إلى ترسيم ما تبقى من هذه الحدود، والتي تمتد من جبل الثأر إلى منتهى حدود البلدين. كما نصت المذكرة على تشكل لجان مشتركة تتولى التفاوض في شأن تعيين الحدود البحرية وفقاً للقانون الدولي وتشكيل لجنة عسكرية مشتركة رفيعة.

وفي عام 2000 جرى توقيع اتفاقية جدة التي وضعت

الصورة النهائية للحدود الدولية بين البلدين، وجاء في نصها: «إيجاد حل دائم لمسألة الحدود البرية والبحرية بين بلديهما بما ترتضيه وتصونه الأجيال المتعاقبة حاضرًا ومستقبلاً». وفي هذه الاتفاقية، التي تمت بين الملك فهد بن عبد العزيز والرئيس علي عبد الله صالح، جرى التأكيد على إلزامية وشرعية معاهدة الطائف الموقعة بين البلدين عام 1934، وترسيم الخط الفاصل بين البلدين بشكل نهائي، والاتفاق على ترسيم الجزء المتبقي من الحدود والذي لم يجرِ ترسيمه مسبقاً بشكل ودّي، وإخلاء أي موقع عسكري تقل مسافته عن خمسة كيلومترات على طول الخط الحدودي.

وبعد أحداث الإرهاب في السعودية وازدياد وتيرة تهريب السلاح عن طريق اليمن، شرعت السعودية في عام 2004 ببناء حاجز أنبوبي بطول 25 كيلومتراً بين البلدين، وذلك للحدّ من عمليات التهريب، وهو ما اعتبرته اليمن إجراءً مخالفاً لاتفاقية جدة الموقعة بين البلدين عام 2000، وجرت معالجته حينها بمفاوضات بين البلدين أدّت إلى إيقاف العمل في الحاجز وإزالة ما تم بناؤه، وذلك في فبراير (شباط) 2004. واتفق الطرفان على التنسيق الدائم بين الأجهزة الأمنية في البلدين، وتسيير دوريات أمنية مشتركة على طول خط الحدود ووضع نقاط مراقبة أمنية على جانبي الحدود واتخاذ ترتيبات مشتركة في المناطق التي يجري منها التسلل والتهريب.

إلا أن السعودية عادت لتعلن في يوليو (تموز) من العام 2009 عن إنشاء أضخم سياج حدودي في المنطقة يغطي كافة حدودها بطول 8500 كيلومتر، وتجاوزت تكلفته المادية المليار دولار، ويُتوقع الانتهاء منه خلال خمس سنوات.

وفي هذا الجزء من الأرض الذي ظننا لفترة أنه يعيش منسياً من كل شيء، إلا من دوريات حرس الحدود والمجاهدين، كنا قد تعايشنا مع المشكلة، ومع القضايا الأمنية التي نراها كل يوم إلى حد فقدنا الإحساس بوجودها. مئات المتسللين يعبرون يومياً وسط قرانا إلى وجهات شتى، بينهم باحث عن فرصة للعمل، أو مهرب للقات والمخدرات، وآخر للسلاح وثالث أرسلته «القاعدة» المستشرية في اليمن، لينفّذ عملياتها في السعودية.

بطول 200 كيلومتر، وقبل أن تصبح عمليات التسلل والتهريب متعذرة في الجبال الشاهقة في شرق جازان، يمتد مسرح لكل أنواع القلاقل الأمنية، لا تتناسب أبداً مع طوله المحدود نسبياً. إنها هذه القرى والأودية التي خبرناها جيداً، شبراً شبراً، كنا نرى سجلها الأمني اليومي، بعيداً عن التقارير والأخبار، مشاهدة بالعيان، غير أن الألفة صنعت منها مشاهد عادية، يتساءل القادم من بعيد، الذي يستمع إلى قصصنا عنها، كيف يمكن تصديقها.

وليس ثمة مبالغة في القول إنها البقعة الأكثر خطراً في البلاد كلها، انطلاقاً من قرية الموسم على ساحل البحر الأحمر،

حيث يبدأ الشريط الحدودي بين اليمن والسعودية، وليس انتهاءً بجبال «الريث» و«القهر» في شرقي المنطقة.

فبين دولتين يبلغ دخل الفرد في إحداهما 600 دولار سنوياً ونسبة الفقر 43%، وأخرى مجاورة لها يفوق دخل الفرد فيها 17 ألف دولار، وتُعدّ من أغنى دول المنطقة، يصبح ما خلف الشريط الحدودي جنة وما دونه نار. وبينهم تقف لقمة العيش.

هذه الحدود الملتهبة، بفعل تجار تهريب المخدرات والسلاح والبشر والمتسللين والخطر المتنامي للقاعدة، لم تكن بحاجة لأن تنفجر في خاصرتها، واحدة من أعنف حركات التمرد والحروب التي شهدتها المنطقة. فمنذ اندلاعها في العام 2004، تمددت الحرب الحوثية اليمنية باتجاه الحدود السعودية اليمنية إلى أن لامست الوضع الذي أصبح بانتظار شرارة لينفجر. وفي نوفمبر (تشرين الثاني) من العام 2009 انفجر الشريط الحدودي الملتهب حرباً حركت فيها السعودية جيشها لأول مرة منذ قرابة العقدين، وتدخلت بقوة عسكرية هائلة لتضع حداً لتاريخ مضطرب منذ الحرب الأولى التي شهدتها الحدود في ثلاثينات القرن الماضي إبان توحيد المملكة العربية السعودية.

هذه الحدود، حيث كثافة التواجد السكاني على جانبيها، وحيث تنتشر مئات القرى الصغيرة لتشكل عائقاً استراتيجياً أمام تنفيذ الخطط الأمنية لضبط السيطرة عليها، وعاملاً مساعداً

على تنامي عمليات التسلل والتهريب. ورغم أن خطر الوضع الأمني على الحدود واضح للعيان، ولأي شخص يقترب من واقعها، إلا أن الحياة قريباً من الشريط الحدودي تخلق نوعاً من الألفة وعدم الإحساس بالمشكلة. فقوافل تهريب القات التي تسير محملة كل ليلة في اتجاهات غير معلومة، تلطفها ألفة شجرة القات مع متعاطيها. في تلك المنطقة، ودون وعي بأن ذات القنوات التي تستخدم لتهريب القات، تهرَّب عبرها المخدرات والأسلحة. ومئات المتسللين اليوميين لم يكونوا أكثر من منظر يثير الشفقة على ظروف الحياة خلف حدود هذا الشريط، ودون إدراك بأنه تسلل عابر للقارات. فقد أصبح هذا الشريط الحدودي منفذاً جاذباً لجنسيات القرن الأفريقي ومسرحاً لتجارة الأطفال. بيد أن حقيقة الحال هي أن اليمن كانت تقذف بمشاكلها المتضخمة كل يوم، من بطالة وفقر و«قاعدة» و«حوثيين» على عاتق هذا الشريط الذي لم يعد يحتمل المزيد، فانفجر حرباً ونزوحاً. وحين أطلقت السعودية على عملياتها العسكرية أنها عمليات تطهير فقد اختارت وصفاً مطابقاً للحالة، بعد أن أصبحت الحدود بمثابة جرح ملتهب!

تأتي «القاعدة» وخطر الإرهاب المتجذر في اليمن، كأهم مشكلة تنعكس على الحدود حيث يتسلل أفراد القاعدة عبر هذا الشريط الحدودي إلى داخل السعودية لتنفيذ عملياتهم. ففي أكتوبر (تشرين الأول) من العام 2009 شهدت جازان حادثة

مقتل رجل أمن في نقطة تفتيش بالدرب بعد أن تسلل بعض عناصر القاعدة من اليمن عبر الحدود. وإضافة إلى تسلل أفراد القاعدة، تعتبر هذه الحدود مصدر تغذية رئيسي بالسلاح للعمليات التي شنتها القاعدة في السعودية بين الفترة من 2003 إلى 2007. وقد وصفت صحيفة النيويورك تايمز الأمريكية عدم تأمين الحدود بأنه أهم إجراء يعزز من وجود القاعدة في اليمن، ومن قدرتها على تهديد المصالح الأمريكية في المنطقة وتنفيذ عمليات إرهابية جديدة في السعودية.

تقرأ هذا التقرير وتفكر متعجباً كيف تحولت هذه القرى والمزارع والأودية التي يحلو في لياليها السمر والرقصات الشعبية والفرح، موضع اهتمام عالمي بالغ ومصدر خطر! القاعدة... نعم إنها القاعدة التي سمعنا بها للمرة الأولى بعد أحداث 11 سبتمبر دون اكتراث، تعبر اليوم من القرى التي عشنا بها الطفولة! مفارقة لا تحلو لأحد.

وفي ذات السجل الأمني المثقل، يُعدّ تهريب السلاح عبر هذا الشريط الحدودي، مصدر قلق آخر في السعودية. فعلى بعد كيلومترات من هذا الشريط يقع أشهر أسواق السلاح في اليمن كلها، سوق «الطلح» بصعدة. بل إن البعض يصنفه كأكبر سوق مفتوحة لشراء وبيع السلاح في الشرق الأوسط. إنه هنا في خاصرة الجار الذي عانى من أحداث إرهابية ارتكبت بسلاح مجلوب من الجارة اليمن! وفي القرى الحدودية نذكر بصورة

جيدة قبل اندلاع أزمة الإرهاب أن تجار الذخيرة كانوا يتجولون داخل القرى بائعين ذخيرتهم للقرويين الذين يعد تملك الأسلحة بالنسبة لهم قيمة اجتماعية عالية.

المخدرات بدورها يزداد نشاط تهريبها على حدود جازان مع اليمن يوماً بعد يوم، بغض النظر عن القات الذي يحظى تعاطيه بنسبة قبول اجتماعية أعلى في المنطقة، ويُعدّ الأقل تأثيراً رغم تصنيفه كمخدر في السعودية. فالحشيش وحبوب الكبتاجون وغيرها يزداد حضورها على الشريط الحدودي يوماً بعد يوم، وخلال عامين وستة أشهر فقط ضُبط 6 آلاف طن من القات، في حين أن ما يعبر الحدود ولا يتم القبض عليه يتجاوز تلك الكمية بالأضعاف.

وأما قصة المتسللين فهي القصة التي لا تنتهي، فخلال عامين فقط سجلت الجهات الأمنية 600 ألف محاولة تسلل من باحثين عن مستويات معيشة أفضل، بين دولتين تعد الأولى أفقر دول المنطقة والأخرى أغناها. أما الذين ينفذون ويغافلون تواجد الجهات الأمنية فهم أعلى من الرقم المقبوض عليه بكثير. يبرهن على ذلك تواجد العاملين اليمنيين في كل شبر من قرى جازان، واحترافهم لكل المهن التي تدر رزقاً. عمليات التسلل لا تقتصر على اليمنيين وحدهم، بل هي عابرة للقارات من قبل جنسيات القرن الأفريقي الذين يعبرون البحر قاصدين «الطوال» و«صامطة» و«الحرث» وغيرها من محافظات الحد الجنوبي!

وحتى حين كان الجيش السعودي ينتشر بمدرعاته وآلياته إبان الحرب. لم تكفِ نيران القصف والمدفعية لتكون رادعاً للمتسللين الذي يستميتون في مسلسل هجرة يومي بصورة جماعية، سيراً على الأقدام، يحدوهم الأمل نحو حياة أفضل.

فارِقُ مستوى المعيشة بين الجانبين، والفقر الضارب بأطنابه في محافظات الشمال، والأمية المستشرية حتى في أوساط صغار السن، ووجود سوق تستهلك منتجات التهريب وتبحث عنه، كلها عوامل حولت الشريط الحدودي إلى منفذ بطول عشرات الكيلومترات، يتفجر كل يوم بحادثة جديدة وأساليب وحيَل مبتكرة في اختراق الحدود.

وعبر هذه الحدود تنشط تجارة تهريب الأطفال. قرابة ألف طفل يعبرون الحدود سنوياً وينتهي بهم الحال عند إشارات المرور وأبواب المساجد أعضاء نشطين في عصابات التسول!

وعبر هذه الحدود كان تجار التهريب قادرين على تحويل الرغيف إلى مطلب وسلعة صعبة المنال، بعد أن نشطت تجارة تهريب الدقيق في بداية 2008، وسببت عجزاً في تغطية حاجة المنطقة بعد أن أصبحت الحصة المخصصة لجازان تتقاسمها معها محافظات الشمال اليمني. ورفعت الاحتياج حينها من 60 ألف كيس شهرياً إلى 100 ألف كيس لتغطية الكميات التي استنزفها مهربو الدقيق وهم يخترقون به الحدود صوب «صعدة» و«حجة» بحثاً عن هامش ربح أعلى.

القرى المحاذية للشريط الحدودي كانت تعيش هذه المشاكل اليومية بتآلف صنعه عامل الزمن، وساعد فيه استفادة لا يمكن إنكارها من اقتصاديات التهريب، وعلى رأسها تهريب الدقيق والمواشي والقات والمخدرات. إلا أن هذه القرى لم تكن السوق المستهدفة على أي حال، فهي مجرد محطة عبور تنفذ منها مشاكل الحدود إلى مدى أكثر توغلاً في أنحاء البلاد. فأفراد القاعدة يشدون الرحال إلى المدن الكبرى ومهربو المخدرات يعلمون أن سوقهم الأكثر ربحية موجودة في العاصمة والمدن ذات الكثافة السكانية.

ولكن ملف الحدود كان يتدحرج ككرة الثلج التي تكبر كل يوم، وحين انفجرت بفعل حادثة اعتداء الحوثيين على جبل «دخان» في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من العام 2009 كان الوقت قد حان لإعادة فتح كل الملفات وبدء عملية الحساب!

اليوم تشهد الحدود بناء سياج حدودي ضخم يقف عازلاً بين الجانبين، ولكن أين ذهب مئات الآلاف من المتسللين الذي يخترقون حدود البلاد كل عام؟ وحين يصبح الحديد من أمامهم والفقر وشظف العيش من خلفهم... أين يذهبون؟

ربما سينهي هذا السياج الحدودي ملف الحدود الساخن، بعد أن تحوّل من مجرد عمليات تسلل بحثاً عن لقمة العيش إلى مصدر تهديد لأمن البلاد وسيادتها! وربما لن يعدم الذين لم

يخشوا التسلل تحت نيران القصف المدفعي في أعنف أيام الحرب حيلة أخرى للوصول إلى وجهاتهم الممتدة على امتداد مساحة الوطن الشاسع وبغاياتهم المتنوعة بين طلب للقمة العيش وتنفيذ لمخططات إرهابية!

خمس سنوات في جوار الحرب

لم تنطلق الرصاصة الأولى للحرب فجأة، ولم تحضر دون دعوة مسبقة. فرغم كل التبعات المؤلمة التي أعقبت حادثة جبل «دخان»، إلا أن طبول الحرب كانت تدق بـ«ريتم» يتعالى يوماً بعد يوم. «ريتم» بدأ قبل خمس سنوات، حين انفجرت أحداث التمرد الحوثي في محافظة صعدة المجاورة لجازان، رغم أن أحداً لم يكن يتخيل أن قذائف الحرب سوف تصيب القرى التي كان يطيب لأهلها تداول أخبار الحرب في مجالس القات كل مساء وكأنها أحداث قادمة من عالم بعيد لا يسكن إلا على شفاه مذيعي الأخبار.

غير أن الحدود السياسية المرسومة على خرائط كتب الجغرافيا لم تكن تعني بالضرورة أنها ستصبح عازلاً حقيقياً على أرض الواقع. وأن أصوات الانفجارات التي تتردد خلف جبال صعدة التي تقف عازلاً طبيعياً بين دولتين، وتختلط على قاطني قرى الحرث بأصوات الرعد في مواسم الغيث، لم تكون سوى مقدمة لأحداث تغيّر واجهة المكان وتعيد كتابة التاريخ من جديد.

اندلعت أحداث التمرد الحوثي في صيف 2004 في صعدة لتدير موجة الأحاديث في مجالس القات بتلك القرى من متابعة أنباء العمليات الانتحارية في العراق وبيانات وزارة الداخلية السعودية حول الأحداث الإرهابية في السعودية، إلى الاهتمام بأخبار الجار القريب، الذي لم يعرفه أحد إلا بأغصان القات الطرية والعنب والزبيب والعسل والبن والسلاح، قبل أن يصبح تهريب الأخير مغامرة لا يرغب أحد أن يتحمل مخاطرها.

كان التلفزيون اليمني الرسمي الذي يمكن التقاط بثه في القرى الحدودية هو الوسيلة الأولى لمتابعة أخبار التمرد الناشئ في صعدة. وكانت عناوين الأخبار في النشرات الرسمية تتلخص في ترديد أنباء انتصارات الجيش اليمني وتقدمه العسكري وتطويعه لمجاميع المتمردين في جبال مران بصعدة. إلا أن القصص الأكثر إثارة وجلباً للاهتمام هي الروايات التي يقصها مهربو القات والمتسللون من منطقة صعدة إلى داخل جازان حول الحرب ومآسيها. قصص غابت عن ذاكرة الإعلام الرسمي اليمني الذي كان مشغولاً بخلق تعبئة شعبية ضد ما كان يوصف بالفتنة الحوثية، ووجدت مجراها على ألسنة العامة الذين ينقلون مشاهداتهم مخلوطة بالشائعات والحقائق وما روي بسند «يقولون».

من تلك القصص التي كانت تلوكها المجالس، حديث عن طائرة حربية من سلاح الجو اليمني تقصف كتيبة للجيش اليمني، وعشرات الضحايا من الجنود الذين كان التلفزيون

الرسمي يبث انتصاراتهم. والأعجب من ذلك استخدام الحوثيين للسحر والشعوذة في الإيقاع بالجنود اليمنيين وتضليل الطائرات وشل حركة الكتائب العسكرية.

وفي حين كانت الحرب تلتهب نيرانها في صعدة، كانت القرى الحدودية في جازان تعيش صيف 2004 موسماً ماطراً، تحولت فيه السيول إلى فيضانات شلّت الحياة في الكثير من القرى خاصة في محافظتي «صبيا» و«بيش» واستدعت تدخلاً إغاثياً من الدفاع المدني لإنقاذ المتضررين وإيوائهم. أصوات الرعد والسحب المحملة بالغيث لم تفارق وجهة السماء، إلا أن ليست كل الأصوات التي كانت تردد في الفضاء في كل عشية من ذلك الصيف مصدرها السماء والرعد. الحرب كانت ترمي بأخبارها عبر أصوات الانفجارات التي كانت تسمع بصورة واضحة ومصدرها القتال في جبال «مران». كانت العلاقة الأولية لأهالي قرى الحرث بالحرب علاقة صوتية يحاولون من خلالها الموازنة بين ما ينقله الإعلام الرسمي اليمني وما ينقله مهربو القات والمتسللون من قصص معاكسة. لم يتخيل أحد أن تلك الأصوات سوف تعود بعد خمس سنوات في صورة أوامر بالنزوح ومغادرة القرى. بعد أن كانت هزيمة الحوثيين في أولى معاركهم بعد ثلاثة أشهر من المقاومة قد أقنعت الناس أن حركة تمرد محدودة نجح الجيش اليمني في اقتلاعها وليس ثمة ما يخشى منه.

نحن الذين تحولنا بفعل حركة التمرد تلك، إلى نازحين ألقت الحرب بأحمالها وسط قرانا ومزارعنا، لم نفهم شيئاً من حقيقة ما يدور في صعدة. بل إن الحرب كانت تصور في شكل خلاف مذهبي وفتنة وإرهاب! وكان التجييش الرسمي الذي يمارس ضد الإرهاب قد حول الشعار الحوثي «الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل» إلى جملة فقدت الكثير من التعاطف معها، رغم أن أحداث العراق كانت مغذية للكراهية المتنامية ضد الغرب. ولكن أحد لم يقتنع أن جبال مران هي الميدان الذي تقاتل فيه أمريكا أو ينتصر على إسرائيل.

11 سبتمبر الذي كان مصادفاً لأول يوم دراسي في العام الجديد حينها، والذكرى الثالثة لأحداث برجي التجارة في نيويورك لم يكن الحديث فيه عن أي واحد من هذه العناوين. في جازان التي قضى أهلها الصيف بأكمله يجاورون الحرب وينامون على صدى تفجيراتها كان للحديث عنوان واحد «قتل حسين بدر الدين الحوثي». بالنسبة لي كان أول أيام المرحلة الثانوية، ولم تكن مهمة إيجاد حديث مشترك مع زملاء الصف الجديد بذات القدر من الصعوبة عما هي عليه كل عام. أخبار الحوثي تُتداول على كل لسان، والتلفزيون اليمني نجح ـ عبر التعبئة التي كانت تبث ضده المتمردين ـ في جعلنا نحتفل بهذا الانتصار.

الإعلام الرسمي اليمني استبق بدوره العيد الوطني الذي يحل بعد أسبوعين باحتفالات لم تتوقف بقطع رأس الفتنة وانتهاء

الحرب وانتصار الجيش اليمني وعودة الحياة في جبال «مران». كيف قتل الحوثي وأين ومتى؟ أسئلة ما لبثت أن تلاشت من الذاكرة وظن الجميع أن فصل هذه الحكاية أغلق وانتهى.

في ذاكرتي وذاكرة الكثيرين، فتحت الحرب ملفاً جديداً من الاهتمام والمتابعة بكل ما يتعلق بأي سياق ترد فيه كلمة الحوثيين. الأسئلة التي كنا نطارد بها اليمنيين المقيمين في قرانا لم تكن إجاباتها تتطابق مع حقيقة أن الحرب انتهت. كانت شعارات الحوثيين ـ الموت لأمريكا... الموت لإسرائيل ـ ما تزال تملأ جبال «مران»، ودليلاً على وجودٍ لم ينته بعد. كانت المهمة المثيرة تتجلى في البحث عن إجابات لأسئلة لم تروِ عطشها نشرات الأخبار الرسمية، أو ما تنشره الصحف. وكانت روايات البسطاء من المتسللين اليمنيين لا تتجاوز تبسيط الحرب في تمرد شيعي تدعمه إيران. أكثر الأسئلة انتظرت إجاباتها خمس سنوات أخرى لتكتمل وأنا أفارق مع عائلتي منزلنا الواقع في غربي محافظة الحرث استجابة لأوامر الإخلاء، وأبعث بتقاريري إلى صحيفة الشرق الأوسط في تغطية الحرب. ربما كانت مفارقة أن الصحيفة الوحيدة التي يمكن العثور عليها في محطة البنزين المجاورة لمدرستي وعلى صفحاتها نتابع أخبار الحرب الأولى، سوف أكتب لها عن أخبار الحرب السادسة! أحد لم يتخيل أن ثمة حرب سادسة.

قبل صيف العام التالي عادت الحرب في صورة أخبار

متقطعة عن مواجهات ومعارك بين الأمن اليمني وتابعين لحركة التمرد الحوثي. وعاد موالها الليلي عبر أصوات التفجيرات التي كانت تسمع بصورة واضحة، على الرغم من أن مدة الحرب الثانية التي نشبت بين مارس (آذار) وأبريل (نيسان) 2005 إلا أن خسائرها البشرية كانت في حدود 1500 قتيل. إلى ذلك الوقت كانت علاقتنا في قرى الحرث المحاذية لجبال صعدة الغربية هي الصوت وأنباء التلفزيون الرسمي وروايات العابرين وأسعار القات التي ترتفع تبعاً لموجة الأحداث.

إلا أن الاهتمام كان متمحوراً حول عودة الجيران إلى الحرب التي صدر مرسوم نهايتها في نهاية صيف 2004، غير أن الثورات لا تموت بهلاك أصحابها. هذا ما أثبته الحوثيون وهم يعودون إلى فتح حساب الدم مع الحكومة اليمنية. غير أن هذا الاهتمام لم يرقَ إلى مستوى القلق من أي تبعات تحملها. فالسلاح والرصاص في اليمن ليس مؤشراً خطراً كما هو في السعودية، والجبال، التي تعزل كل مشاهد الحرب إلا أصوات التفجيرات والمدافع، كانت صمام أمان يستند إليه الجميع، والحوثيون يحملون سلاحهم ضد الحكومة اليمنية فقط.

مرَّ العام 2006 هادئاً إلا من ضجيج الانتخابات اليمنية التي استبقها الرئيس اليمني بإعلان أنه لن يترشح للرئاسة مرة أخرى. أصبح اليمن مادة ساخنة وحديثاً جدلياً يتردد كل يوم، فهو الجار الأقرب وتبعات أحداثه تنتقل مباشرة عبر آلاف

العاملين اليمنيين، في قرى الحرث، الذين ينقلون من يشتغل بمتابعة اليمن وتطوراته إلى بوتقة الأحداث دون عبور للحدود. والعام 2007 كان عاماً ساخناً بدوره، انفجرت أزمة تهريب الدقيق من السعودية إلى اليمن، وأصبحت الحصة المخصصة لجازان من أكياس الدقيق، من صوامع الغلال، حصة تشاركها فيها المحافظات الحدودية اليمنية مثل صعدة والحديدية. وكان تهريب الدقيق تجارة اشتغل بها العشرات من الجازانيين واليمنيين على حد سواء، بحثاً عن هامش ربح أعلى، حيث قيمة كيس الدقيق، الذي يباع بـ 27 ريالاً داخل المنطقة، تصل إلى أكثر من 100 ريال خارجها. لم تكن الأزمة مجرد مهنة عاطلين عن العمل وجدوا في مغامرات مرواغة رجال حرس الحدود والتهريب مصدر رزق، بل تعدى الأمر إلى أن أصبحت تجارة واسعة اشترك فيها عدد من أصحاب المال في المنطقة، وعلى الطرف الآخر كان كيس الدقيق السعودي يصل إلى الأسواق اليمنية بسعر أقل. وصلت أزمة التهريب حينها إلى حدود مذهلة أصبحت فيه أكياس الدقيق المنتج داخل اليمن غريباً إزاء شقيقه السعودي في المناطق الحدودية. وداخل الحدود لم تجد إمارات محافظات جازان بدّاً من تحويل الدقيق إلى سلعة اشتراكية تباع بعد الحصول على تصريح لذلك. أمام مخازن الدقيق كان الناس يصطفون في طوابير طويلة يحملون الهوية الوطنية التي تشفع لهم بالحصول على كيس دقيق هو حصة الأسبوع كاملة.

أما على الحدود فمع غروب شمس كل يوم كانت عشرات الحمير تنتظم في قوافل مخصصة لحمل الدقيق وتهريبه إلى داخل اليمن، بل إن جنون الأسعار الذي خلقته العملية دفع بالبعض إلى التحول إلى عتالين عابرين للحدود يحملون أكياس الدقيق على ظهورهم للوصول به إلى بر الأمان. الحمير التي ربما فقدت وظيفتها كوسيلة للنقل عادت إلى المشهد بصورة غير مسبوقة، وقفزت بأسعارها إلى أكثر من ألفي ريال للحمار الواحد، وهو السعر الذي كان في السابق دون الخمسمائة ريال. لم تكن تجارة تهريب الدقيق وليدة اللحظة، غير أنها تحولت إلى أزمة بعد أن أصبحت تُضخ من أجلها رؤوس الأموال!

وفي العام 2007، ومع تجدد القتال بين الحوثيين وعناصر من الجيش اليمني كانت الحرب تقترب من الحدود. حيث وقع اشتباك بالقرب من الحدود في مطلع فبراير (شباط).

وفي خضم أحداث الحرب الثالثة بين الحوثيين والحكومة اليمنية وصل الإنذار الأول للحرب عابراً الحدود، حين سقطت مجموعة من القذائف في مناطق شمال محافظة الخشل التي تبعد عن الشريط الحدودي بأقل من كيلومترين، إضافة إلى قرى في محافظة الحرث. سقطت تلك القذائف في شهر أبريل (نيسان)، ورغم أنها ظفرت باهتمام أمني من قوات الشرطة وحرس الحدود التي طوقت المكان، إلا أن الإعلام المحلي ومراسلي الصحف اختاروا الصمت حيال القضية. لم تعبر تلك

الحادثة في أذهان السكان المحليين بسلام، بل ظفرت باهتمام كبير أعاد كل الأسئلة حول حقيقة ما يجري في جبال صعدة إلى الواجهة. كان السؤال الأكثر قلقاً والذي أصبح مطروحاً للمرة الأولى منذ اندلاع المواجهات، هل ستعبر الحرب الحدود؟ ذاكرة مجالس القات لا تدوم طويلاً، فقد نسي السكان الحادثة أو غضوا الطرف عنها، باعتبار أنها لن تتكرر مرة أخرى. فتلك الحادثة طورت علاقة القرويين في الحرث بالتمرد الحوثي من خلال نشرة أخبار أو حديث مجلس أو أصوات مدافع إلى مصافحة بقذائف دفنت وسط قراهم ومزارعهم.

لم يصدر بيان رسمي في السعودية أو اليمن حول حقيقة القذائف التي سقطت على أطراف القرى والمزارع ولم يصب فيها أحد من المدنيين، ومرة أخرى روي بسند «يقولون»: إنها قذائف أطلقتها طائرة حربية يمنية كانت تتبع تجمعاً للحوثيين بمحاذاة الحدود، ورواية أخرى ذكرت أن الحوثيين هم من أطلقوا تلك القذائف على حرس الحدود اليمني المنتشر على طول الحدود مع السعودية.

ضُمّت الحادثة إلى تاريخ الحدود التي اعتادت على القلق، غير أنها أعادت إلى الأذهان حادثة اشتباك تم بين أهالي الحرث ودوريات من سلاح الحدود السعودي مع عناصر أمنية يمنية في الحادثة التي اشتهرت بحادثة «القرقاعي» في عام 1999. والتي حاول حينها جنود يمنيون إنزال العلم السعودي عن

مدرسة واقعة على الشريط الحدودي، ما سبب نزاعاً مسلحاً سقط فيه القتلى من الجانبين. غير أن الخلاف لم يدم طويلاً.

انتهت الحرب الثالثة في بداية صيف ذلك العام ومعها أقفلت صفحة أخرى من ملف الدم الذي لم يغلق إلى اللحظة. غير أن أنباء الانتصارات التي تحفل بها وسائل الإعلام الرسمي اليمني لم يعد يصدقها أحد، وحدها شهادات القادمين من مناطق الحرب في صعدة هي المصدر الموثوق في تقييم حالة الخطر القائمة خلف الجبال. وكلهم كانوا يتفقون على شهادة واحدة «الحوثيون في كل مكان».

كانت قريتنا هي النقطة الأبعد في محافظة الحرث، حيث تفصلها عن الحدود مسافة تبلغ 16 كيلومتراً... القصة الحوثية كانت حاضرة في القرى الواقعة على الشريط الحدودي أو تلك التي لا تبعد عنه سوى كيلومترات معدودة بصورة يومية أكبر. وكان سوق الخوبة «الشهير» الذي يقع على بعد 4 كيلومترات من الشريط الحدودي، ويقام كل يوم خميس ويعد نقطة التقاء بين قاطني الجانبين، وفرصة لتبادل أحاديث الحرب بين طرف يكتوي بنارها وآخر تقلقه أخبارها المتكررة. وخلف «النضير» و«رازح» اللذين يقفان عازلاً طبيعياً بين دولتين، كانت الحرب ما إن تنطفئ حتى تشتعل مرة أخرى، وفي كل جولة تكون أشد وأكثر اقتراباً. وهكذا فإن العلاقة تتطور في كل مرة وتزداد تأثيراتها على قرى الحد الجنوبي الأقرب لخط النار في صعدة.

عام 2008، وقبل أن تكمل المدافع عاماً من الصمت، فتحت الصفحة الخامسة من التمرد الحوثي، حيث إن المقدمة هذه المرة كانت مختلفة تماماً ومخالفة للسيناريو الذي اعتادته الحرب. فرغم أنها بدأت باشتباك بين الحوثيين وجنود يمنيين، إلا أن حادثة تفجير مسجد في صعدة بعد صلاة الجمعة في مطلع مايو (أيار) من نفس العام، كان حدثاً خارجاً من سياق الحرب التي لم يكن المدنيون هدفها الأساسي. قتل في التفجير الذي وقع في مسجد ابن سلمان بصعدة 15 مصلياً. أما نحن القرويون، الذين تخبرنا الحرب عن تفاصيلها بواسطة أصوات المدافع والتفجيرات، فقد شكل الحادث مثار اهتمام خاص في تاريخ القتال. كانت الخشية من تحول الحرب من مجرد تمرد مسلح ضد الأجهزة الأمنية التابعة للحكومة إلى حرب أهلية وفتنة مذهبية. خاصة وأن القتال كان يعزف على وتر المذهبية بشدة كل مرة، ووسائل الإعلام تبالغ في تصويره كمدّ مذهبي تابع لإيران يريد أن يجد موطئ قدم له في المنطقة. لعل من المفارقات أننا نحن جيران اليمن والأقرب إليه لم نكن نركب صورة اليمني في أذهاننا بمذهبه أو طائفته، كان هو اليمني الذي يمثل العروبة في أشمخ صورها والبساطة بكل مكوناتها والاعتزاز بوطنه. كما هو معتاد، حملت الحكومة الحوثيين مسؤولية الحادث بينما نفى المتمردون ذلك وقدموا التعازي لأهالي الضحايا.

الحرب الخامسة شهدت تطوراً آخر، حيث اتسعت رقعتها الجغرافية لتتعدى مديريات صعدة، التي كانت تدور فيها معارك التمرد، إلى أطراف صعدة وفي محافظة عمران وأطراف صنعاء. إلا أن الناحية الغربية من صعدة والمطلة على الشريط الحدودي، الذي كان يفصل بين قرى الحرث والعارضة وبقية محافظات جازان الحدودية وبين محافظة صعدة، ظل آمناً إلا من حادث واحد وقع في شهر مايو (أيار) من العام نفسه قريباً من الحدود وقتل فيه مسلحون وجنود يمنيون.

انتهت الحرب في صيف ذلك العام. ومع نهايتها كان القرويون الذي يعيشون مع الحرب صوتاً وتتبعاً للأخبار يتساءلون عن الجولة التالية من المواجهات متى ستكون؟ أحد لم يعد يصدق أخبار التلفزيون الرسمي اليمني وما يبثه من أخبار للانتصارات ودحر المتمردين والقضاء على الفتنة. في الحقيقة لم تعد حينها القناة الرسمية اليمنية، التي يصل بثها إلى القرى الحدودية أرضياً بصورة أنقى من القناة الأولى للتلفزيون السعودي، لم تعد تغري أحداً بمتابعتها بعد أن ازداد انتشار الأطباق الفضائية منذ العام 2004 بداية الحرب. وكان ذلك التساؤل يزداد قلقاً من الأنباء التي ينقلها اليمنيون المتسللون عبر الشريط الحدودي إلى داخل القرى السعودية عن فرض الحوثيين لسيطرتهم على كامل محافظة صعدة وإنشائهم لنقاط تفتيش في طرقات المحافظة وتعزيز وجودهم في مناطق قريبة

جداً من الشريط الحدودي مثل «الملاحيط» و«المثلث» وجميعها لا يفصل بينها وبين القرى السعودية إلا كيلومترات معدودة.

كانت شعارات «الموت لأمريكا.. الموت لإسرائيل» التي يرفعها الحوثيون تملأ كل مكان بمجرد تجاوزك لآخر نقطة تفتيش تفصل بين السعودية واليمن، كذلك كانت روايات مهربي القات والباحثين عن عمل من المتسللين.

في تلك الفترة ازدادت ضراوة أزمة تهريب الدقيق إلى اليمن، وتحولت إلى تجارة. وقفزت هذه الأزمة بسعر الكيس الواحد إلى ثلاثة أضعافه بعد أن حولها رجال أعمال في المنطقة إلى تجارة بينما كان المواطن يجد المخازن فارغة في كل مرة. وفي مراكز حرس الحدود كانت تكوم مجموعات كبيرة من أكياس الدقيق التي تتم مصادرتها من المهربين. كانت مفارقة أن تظل تلك الأكياس في أحواش حرس الحدود تحت الشمس حتى تنتهي صلاحيتها، دون أن تجد طريقها إلى أي من الباحثين عن الرغيف على جانبي الشريط الحدودي.

كانت الحرب في مجالس القرويين في قرى الحد الجنوبي تشكل مادة دسمة في كل يوم، وكانت روايات القادمين من داخل اليمن تشير إلى وجود علاقة بين المتمردين وتهريب الدقيق، حيث تشير هذه الروايات إلى أن الحوثيين يقومون بشراء أكياس الدقيق السعودي بمبالغ مرتفعة جداً لا يستطيع المواطن اليمني

العادي دفعها، وأن حالة التضخم التي أصابت هذا المنتج لم تكن إلا نتيجة استعداد جماعة التمرد الحوثي لشرائه بمبالغ وصلت داخل اليمن إلى أربعة وخمسة أضعاف السعر الذي يباع به داخل المتاجر السعودية. كما أن التهريب كان نشطاً عبر الحدود مع نجران في الوقت ذاته.

وصلت عمليات التهريب إلى ذروتها قبل اندلاع أحداث الحرب الخامسة. ومعها فتح ملف من التساؤلات حول حقيقة تجارة التهريب الناشئة التي استنزفت مخزون المنطقة واستجلبت رؤوس أموال للانتفاع من أرباحها.

في قريتنا الواقعة على خط ترابي يعبره المهربون كثيراً تجنباً لنقاط التفتيش المنتشرة، كانت سيارات المهربين تعبر بصورة ليلية محملة بأكياس الدقيق التي يتم نقلها إلى نقاط محددة على الشريط الحدودي، حيث تتولى قوافل من الحمير المعدة لهذا الغرض المهمة الأصعب في شبكة التهريب الممتدة عبر كل جزء في الشريط الحدودي، وهي اجتياز الحدود ومغافلة دوريات حرس الحدود والمجاهدين الذين تنتشر دورياتهم في تلك المنطقة بكثافة. قرى مثل المشنق والجابري والمصفق، والتي تقع مباشرة على الشريط الحدودي، كانت أشهر من علم على نار في قائمة معالم جازان.

بمجرد أن تميل الشمس نحو الغروب، يبدأ النشاط التهريبي حتى انبلاج الفجر دون توقف، وباستماتة في إيجاد كل الوسائل

الممكنة لاختراق الحدود، وهي المهمة التي أضحت عملية يومية للكثيرين من مهربي القات والدقيق. هؤلاء يجيدون اختيار المكان والزمان بصورة تشك معها في وجود تواجد أمني على الشريط، غير أن ذلك لم يكن حقيقياً، فسلاح الحدود يعلن أنه يقبض بصورة شهرية على 2400 كيس دقيق يتم تهريبها، ومن المؤكد أن ما يفلت من قبضة دورياتهم يفوق هذا الرقم بكثير كما هو الحال في أي تجارة تهريب ناجحة ومربحة.

مافيا الدقيق التي اجتاحت المنطقة في عامي 2008 و2009 رفعت احتياج الدقيق من 60 ألف كيس شهرياً إلى 100 ألف كيس، لمعادلة الكمية التي يتم تهريبها إلى داخل اليمن. في حضرة مجلس لأحد تجار الحرث أذكر أني استمعت إليه وهو يعترف بأنهم حولوا رؤوس أموالهم من التجارة الأصلية التي يعملون بها إلى الاستثمار في تجارة تهريب الدقيق. وهي التجارة التي أعادت الحمير إلى عصرها الذهبي كوسيلة نقل مما جعل إيجار الحمار الواحد المدرب لعمليات التهريب وطرقاته يصل إلى 100 ريال في اليوم الواحد، وهي قيمة تظل مقبولة إذا كان سعر شراء الكيس من مصدره الأصلي بين 22 ريالاً و26، بينما يباع في السوق السوداء إلى المهربين بسعر 35 ريالاً. ومن يقوم بنقله إلى الشريط الحدودي يبيعه بأسعار تصل إلى 70 ريالاً. ومن يختار المهمة الأصعب وينقله إلى داخل اليمن يبيعه هناك بأسعار تتجاوز 100 ريال، وقد تصل إلى ضعف ذلك السعر.

مستودعات واسعة غير مصرح بها كانت تمتلئ بحمولات الدقيق المعدة للتهريب، والمواطن أضحى الرغيف بالنسبة له همّاً يومياً يؤرقه ويلجئه إلى الانتظار في طوابير طويلة للحصول على حصة أسبوعية أو شراء العبوات الصغيرة التي تباع في البقالات.

إلى أين كانت تذهب كل تلك الحمولات التي تكدس في مخازن وتنقل عبر شاحنات إلى القرى الحدودية وأوجدت نقصاً وتضخماً عالياً في الأسعار في منطقة بأكملها؟ الإجابة البديهية هي إلى المحافظات اليمنية المجاورة. ولكن إلى أيّها بالتحديد؟ ومن هو القادر على شراء هذه المؤونات بأسعار تصل إلى أربعة أضعاف سعرها الأصلي وأكثر؟ وهو السعر الذي ربما يشكل نصف دخل العامل اليمني الذي يتقاضى دخلاً شهريا لا يتجاوز 70 دولاراً.

مهربو القات القادمون من جبال صعدة يتحدثون عن كميات كبيرة من أكياس الدقيق التي تحمل طابع صوامع الغلال السعودية، يتم تكديسها من قبل تابعين لحركة التمرد واستعدادهم لشرائها بأسعار لا يقوى عليها المواطن اليمني العادي في صعدة. خاصة وأن الحروب المتوالية وخاصة مع الحرب الخامسة والسادسة أفرزت حصاراً اقتصادياً بعد أن أصبحت صعدة خاضعة لحكم المتمردين وسيطرتهم. حصار أصبح معه الجار القريب هو الخيار الأمثل للحصول على مؤن الدقيق والبنزين كما سيحدث في الحرب السادسة لاحقاً.

هل كان تجار التهريب وهم يبحثون عن هامش ربح مرتفع خلف الحدود يساهمون في تموين وتعزيز صمود حركة التمرد الحوثي، حيث سيصبح مسرح قتالها لاحقاً هو ذات الشريط الحدودي الذي تنشط فيه عمليات التهريب؟ ليس ثمة دلائل وبراهين حاضرة تثبت ذلك، إلا أن هذا السؤال ليس سراً، بل هو أشبه باتهام يوجهه المواطن الجازاني الذي تحول إلى نازحٍ بعد امتداد الحرب إلى خارج حدودها السياسية وأجلته عن قريته ومزرعته.

ووفقاً لشهادات مهربي القات القادمين من صعدة، فإنّ الدقيق السعودي هو السلعة الغذائية المسيطرة في سوق الرغيف في صعدة وليس المنتج اليمني. شهادات غير مؤكدة تشير إلى أن كميات كبيرة من هذا الدقيق يتم تخزينها في الكهوف التي يتحصن فيها المتمردون الحوثيون من نيران القصف والمدافع في حروبهم.

إنَّ النشاط المريب للدقيق أنهك المواطن العادي وأحال الرغيف إلى هم ثقيل يطارده، وقذف بعشرات الشبان العاطلين وخاصة من اليمنيين وألهب الحدود، كل ذلك يحمل تساؤلات لم تُجب عليها الصحافة التي كانت تغطي أزمة الدقيق حينها، إلى الحد الذي تصل معه الشحنات إلى الشريط الحدودي ثم لا يسأل أحد: أين يذهبون بها؟

ولكن السؤال ظل مطروحاً في المجالس، وظل حديث الشارع،

والإجابات تأتي من الشهود العيان في صعدة أن الرغيف هو السلاح الأبيض الذي يستورده المتمردون من السعودية ويخبئونه في كهوفهم إلى جانب قذائف الـ «آر بي جي». فالمنطقة لم تشهد تهريباً بهذا القدر، كما ازداد مع اشتعال وتيرة القتال في صعدة، وكان لازدياد عمليات التهريب قبل اندلاع المواجهات حضوره كعلامة استفهام تبحث عن العلاقة بين صمود التمرد الحوثي ونشاط تهريب الدقيق عبر الحدود.

غير أنه في فترات القتال التي يزداد فيها الحصار الاقتصادي على صعدة لا يجد المواطن اليمني البسيط ملجأ للحصول على الرغيف إلا عبر ما يوصله المهربون إلى أسواق صعدة. انجلت أزمة التهريب مع زيادة التشديد الأمني من قبل دوريات حرس الحدود بعد أن تحولت إلى مخاطرة حيث أصيبت شبكات التهريب بشلل مؤقت بعد أن استهدف حرس الحدود الحمير المدربة على التهريب والتي هي عصب هذه العملية، إضافة إلى الاضطرابات التي أثارها تجدد القتال في صعدة مرة أخرى.

التأثير الاقتصادي المنعكس لحركة التمرد الحوثي على القرى الحدودية في جازان لم يقف عند تهريب الدقيق فحسب، كانت الحركة المعاكسة وهي تهريب الدقيق إلى داخل جازان والتي تسير في نفس خطوط تهريب القات تتأثر تبعاً للحرب. فالقتال كان يمنع وصول القات إلى الشريط الحدودي وهو الأمر

الذي انعكس على أسعاره التي ارتفعت بنسب وصلت إلى 50 في المائة. فجبال صعدة تشتهر بزرع أجود وأغلى أنواع القات اليمني «النضيري والشعفي والشامي»، والقلاقل التي أحدثتها الحرب ساهمت في تعطيل شبكات تهريب القات وإيقافها. ولاحقاً في الحرب السادسة تم تدمير عدد من أسواق القات الرئيسية على الشريط الحدودي.

من المعروف في صعدة أن القات هو مصدر الدخل الأول لشريحة واسعة، بل ومصدر ثراء واسع لتجار يملكون أموالاً طائلة جراء شبكات تهريب القات التي تعد سوقها الأولى، والأكثر ربحاً هي القرى الواقعة خلف الشريط الحدودي. وهو المستهدف الأول من خلال هذه الشبكات حيث تنقل أجواد أنواع القات إليها بينما يظفر المواطن اليمني الكادح بأقلها جودة.

هل كان المواطن الجازاني يدفع ثمن القات إلى متمرد في صعدة يشكل القات مصدر تموين له وثراء؟ اتهام آخر أشعلته الحرب رغم أن تهريب القات قائم قبل أن تقوم حركة التمرد الحوثي. ولكن هذا الاتهام تدعمه شهادات القادمين من اليمن الذي يشيرون إلى الحوثيين يبيعون القات في سوق الملاحيط الواقع على بعد 5 كيلومترات من الشريط الحدودي. إضافة إلى أن مهربي القات يذكرون الحوثيين بالخير دائماً ويتحدثون عن التسهيلات التي يمنحها أفراد التمرد الحوثي للمهربين أثناء تسللهم إلى الشريط الحدودي من خلال نقاط التفتيش التي

نصبوها في المناطق التي سيطروا عليها وانسحب منها الجيش اليمني، ابتداءً من الملاحيط واتجاها إلى الشمال مروراً بالمثلث والمشنق وهي معالم مشهورة خاصة في ذاكرة المهربين.

متسللون كان يصفون المتمردين بأنهم خير من الحكومة وأنهم لا يعترضون طالبي الرزق ولا يمنعونهم من ممارسة نشاطهم، بخلاف ما كانت تفعله الحكومة. وهي القرائن والاتهامات التي أفرزت تساؤلاً كشفته حرب جبل دخان التي أعقبت ذلك: هل كان الحوثي يصدر القات إلى السعودية ويستورد منها الدقيق؟

لقد كان الرغيف الذي يتناوله المواطن في الظهيرة، والأغصان الطرية الخضراء التي يعكف عليها بقية المساء سلعتين شكلت اقتصاديات التمرد الحوثي في اليمن، وكانت هي أول انعكاسات الحرب على القرويين في محافظة الحرث جنوب شرقي جازان، لم تكن الرصاصة الأولى للحرب هي تلك التي انطلقت في جبل دخان، وفتح النار لمئة يوم أعادت كتابة تاريخ المنطقة. ففي عام واحد هو عام 1430 كانت مقبوضات حرس الحدود السعودي تفوق مائتي طن من القات ولكن ما تقبض عليه دوريات الحدود ليس سوى جزء بسيط مما ينفذ إلى مجالس وأسواق بيعه داخل المنطقة.

الباحثون عن الكيف في جلسات المقيل كانوا يضخون أموالاً

طائلة يصل معدلها إلى 3000 ريال للشخص الواحد شهرياً تجد طريقها إلى تجار شجرة الزقوم كما يطلق عليها بعض اليمنيين في جبال النضير والشعف في صعدة، حيث كان تجار تهريب الدقيق يستلمون مبالغ ضخمة قادمة من الباحثين عن الرغيف في أسواق صعدة وأولئك الذين يخبئونه ليوم أسود قادم. وبينهما ولدت العلاقة الأولى للقروي الساكن على الشريط الحدودي في جازان، في منطقة هي الأشد إزعاجا وقلقاً للعاصمة الرياض في ما يتعلق بتأمين حدودها، علاقة لم تنته بانطفاء نيران الحرب الخامسة، انتظاراً للجولة الجديدة من القتال. إن أحداً لم يضع في حسبانه أن الجولة القادمة لن تتوقف تأثيراتها عند أصوات التفجيرات الليلية أو القذائف المتساقطة بالخطأ على أطراف الحدود، أو على الرغيف والكيف... بل هي جولة ستجلي هذا المواطن من قريته وتعطل الحياة في أكثر من 240 قرية وتبقيها معلقة في قائمة انتظار!

في منتصف صيف 2009 كانت الحرب قد أكملت عاماً من الصمت، ولكن أحداً لم يكن يثق في هذا الصمت أو يطمئن إليه، خصوصاً وأن مناوشاتها كانت مستمرة بين فينة وأخرى، وأن إعلان توقف الحرب الخامسة كان من طرف واحد من قبل الجيش اليمني ولم يسجل أي انتصار حاسم ضد حركة التمرد الحوثي في تلك الحرب. الحوثيون كانوا يزيدون وجودهم في صعدة وباتوا يسيطرون حتى على المناطق المطلة على الشريط

الحدودي؛ وحكايات مهربي القات والمتسللين اليمنيين تؤكد زيادة انتشارهم خاصة في الأسواق المطلة على الشريط الحدودي وفرضهم لنقاط تفتيش على طرق رئيسية تؤدي إلى السعودية.

فيما مضى اعتدنا من اليمنيين مبالغتهم في تصوير الجيش اليمني وبأسه في الحروب بصورة أسطورية، إلا أن الحرب التي أنهكت هذا الجيش، عززت في المقابل صورة الحوثيين بأن تمردهم وُجد ليبقى وسيصبح جزءاً من النسيج التاريخي اليمني لفترة أطول من تلك التي يصورها الرئيس اليمني علي عبد الله صالح في خطاباته حول اجتثاث الفتنة وقمع التمرد ودحر المعتدين، وهي الخطابات التي تحولت إلى لغة أكثر لطفاً واعترافاً بوجود هذه الحركة التي زادتها الحروب تجذراً في صعدة قوة، ودعوة إلى نزع السلاح والمشاركة السلمية.

لجان الوساطة وأخبار المفاوضات التي يبثها التفلزيون اليمني لم تكن تعكس واقع الجو الذي أصبح مخنوقاً بجو المعارك ينتظر رصاصة واحدة لتشعل نيران الحرب السادسة. جيران الحرب الذين وطدوا علاقتها مع أصواتها وتأثيراتها ظنوا أن السيناريو القادم لن يكون مختلفاً عن سابقه، ولكن الحرب فاجأتهم إذ انفجرت على أطراف الحدود وتحول من صوت إلى مشهد أمام العيان.

نهاية شهر يوليو (تموز) من 2009 بدأت بوادر النزاع على

غربي صعدة في شدا ورازح وعلى طول الشريط الحدودي في الحصامة الواقعة على الشريط الحدودي وكذلك الملاحيط. في الليالي التي تدوي فيها أصوات الانفجارات يكون التساؤل في قرانا: رعد أم مدفع؟ غير أن السماء القائظة والخالية من الغيوم في ذلك الصيف كانت تكشف عن فصل جديد من الحرب. تطل جبال شدا ورازح الواقعة في غربي صعدة مباشرة على الشريط الحدودي مع السعودية، والقاطن في تلك الجبال يستطيع بوضوح أن يكشف منطقة الشريط الحدودي كاملة، وفي المقابل يمكننا نحن القاطنين تحت جبال صعدة الشامخة رؤية وتحديد حركة السيارات عبر أنوارها في ذلك الليل المهيب. كانت جبال صعدة تستقبل الغيوم وتصدها وتعيدها إلى قرانا محملة بالغيث وماطرة، وفي مواسم الجدب ترسل أودية خلب ودهوان والدحن وذهبان ولية التي تتوزع على ضفافها الحياة في قرى الحرث، بسيل يروي شفاه الأرض اليابسة. وكانت صعدة ترسل لنا صناديق العنب الأسود الذي تشتهر به في صيفها، والبن الخولاني الذي ما شربت قهوة عربية بمثل مذاقه، وكانت ترسل لنا العسل والقات الشامي الذي يحيل ليالي القرى إلى سمر لا ينقضي إلا مع الفجر الذي يرسل أول خيوطه من خلف جبالها، غير أنها حملت بالحرب سفاحاً فأصبحت مواليدها قذائف ومدافع ومشردين ترتعد شفاههم وهم يرون قصص الخوف والموت.

الحرب السادسة

كسلسلة مفرقعات نارية، انفجرت وتناثرت دون أن ينتبه لها أحد، اندلعت الحرب على أطراف الشريط الحدودي وقلبت معها الموازين. بدأت الاشتباكات في منطقة الحصامة والمشنق والمثلث ودارت رحى المعارك بين ألوية الجيش اليمني في شدا ورازح ثم امتدت الحرب لتصل إلى الملاحيط وهي السوق التجاري الأهم على امتداد الشريط الحدودي، وربما في صعدة بأكملها. الحوثيون أعلنوا سيطرتهم على الحصامة والمشنق، وطردهم للجيش اليمني من الشريط الحدودي إلى جنوب الملاحيط، واستيلاءهم على لواء كامل من الجيش اليمني بكامل معداته، بينما انسحبت بقاياه إلى داخل الأراضي السعودية بحثاً عن الأمان، ومنها عادوا إلى اليمن. ذلك الانسحاب كان مواجهة أخرى من مواجهات القتال في اليمن، ولم يكن أحد بحاجة إلى أن يقرأ في نشرات الأخبار عن نذر حرب سادسة.

إنها الحرب دون نذر.

قبل بداية شهر رمضان كان الجيش اليمني قد بدأ هجوماً شاملاً على صعدة، وفي حين كان مذيعو الأخبار يصفون النسخة

السادسة من الحرب بأنها الأعنف، فأصوات الانفجارات التي تحولت إلى أصوات مرعبة ومسموعة بوضوح شديد يصل إلى حدّ الإزعاج، كانت تؤكد ذلك.

بدأت الحرب على محورين هما حرف سفيان، والملاحيط. الأخير لم يكن يبعد عن أقرب قرية سعودية مسافة 5 كيلومترات.

المتمردون سيطروا على كامل الشريط الحدودي شمال الملاحيط، وأصبح على رجال حرس الحدود السعودي التعامل مع تنظيم يتعامل معهم كدولة مستقلة، يعترض ويرسل الإنذارات ويقدم المطالب! ومع ازدياد وتيرة الحرب وفتكها بدأ آلاف المواطنين اليمنيين بالنزوح من منازلهم وقراهم متجهين صوب الجنوب بحثاً عن الأمان.

النزوح كان إحدى قصص الحرب المؤلمة. ثلاث اتجاهات أمام الهاربين من نيران الحدود اليمنية، أولها كان مخيم النازحين الذي أقيم في منطقة المزرق جنوب الملاحيط، حيث يستقبل العشرات ثم المئات ثم الآلاف ممن شردتهم الحرب. وآخرون وجدوا الأمان في البقاء معلقين على الشريط الحدودي بحثاً عن الأمان الذي يحدثه تجنب الطرفين لنقل القتال إلى مناطق التماس مع السعودية. ومحظوظون وجدوا فرصتهم للتسلل إلى داخل القرى السعودية في الحدود. وكانت البيوت المهجورة والأحواش في تلك القرى تمتلئ يوماً بعد يوم بعشرات الأسر

النازحة التي تحكي عن وطن جميل خلف الحدود كان في يوم من الأيام سعيداً.

كان من المؤلم حقاً أن تستمع إلى مواطن يمني يعلن براءته من حرب ينادون فيها بالموت لإسرائيل وأمريكا ويكون هو ضحيتها الأولى. في ساعات الخوف ارتحلوا هرباً من نيران القصف ورحى الحرب وتركوا خلفهم كل ما يملكون، وعادوا إلى مربع الحياة الأول صِفراً من كل شيء إلا أرواحهم وأملهم في الحياة. كان من المفارقة في ذلك الموقف أن يجد ساكنو القرى الحدودية في تلك المصيبة فائدة! فقد فتحت باباً للزيجات بين أسر النازحين ومن يعلنون استعدادهم لاستضافتهم، كان المهر هو الأمان ولا شيء آخر. وسادت حينها مقولة أن من يريد الزواج ما عليه سوى التوجه إلى الشريط الحدودي والبحث بين أوساط النازحين من صعدة.

لقد كان وجها جديداً للحرب لم نعهده منذ بدايتها، أصبحت الحرب أشبه بواقع نقف في صفه الخلفي. كانت أصوات المعارك تشتد وتدوي بصورة مخيفة، وكانت قصصها تنقل على ألسنة الهاربين من جحيمها دماً ودماراً يأتي على كل شيء. بدأ القلق من مصير هذه الحرب التي لا تشبه أياً من مثيلاتها يزداد يوماً بعد آخر. وكل يوم حادثة جديدة توطد علاقتنا بهذه الحرب التي اعتدنا على مجاورتها دون رغبة أو اختيار.

فرضت الحرب حصاراً وعزلة على صعدة دفع فاتورتها الأولى المواطن اليمني الذي وجد نفسه مضطراً لشراء حاجياته من السعودية والارتحال بها تهريباً وخوفاً. حينها كنت أعمل مراسلاً متعاوناً مع صحيفة الشرق الأوسط الدولية وكتبت تقريراً عن آثار الحرب على الشريط الحدودي وفي وصف أزمة التهريب.

انقطاع الموائد الغذائية وتوقف الحركة التجارية في المناطق التي احتلها الحوثيون أنعش تجارة التهريب من قرى جازان الحدودية داخل السعودية إلى الجبال المطلة على الشريط الحدودي في محافظة صعدة، خاصة الدقيق والمواد الغذائية والبنزين.

يقول هاشم الذي التقته «الشرق الأوسط» في منطقة المثلث على الحدود بين السعودية واليمن إنه نجح في التسلل عبر الحدود ومعه 150 لتراً من البنزين قام بتهريبها على ظهر حمار بعد أن اشتراها من محطة لبيع الوقود في قرية سعودية محاذية للشريط الحدودي. ويعلل هاشم قيامه بهذا الأمر إلى انقطاع الكهرباء عن قريته في جبل رازح بمنطقة صعدة، حيث يستخدم هذا البنزين في تشغيل مولدات منزلية لتزويد قريته بالكهرباء. ويضيف قائلاً: «تجار التهريب يبيعون هذه الكمية بمبلغ ثلاثمائة ريال سعودي (80 دولاراً) داخل صعدة، بينما أشتريها من السعودية بستين ريالاً (16 دولاراً) وأدفع مبلغا مماثلاً لنقلها إلى قريتي في أعلى الجبل». وإضافة إلى البنزين، يعتبر الدقيق

بضاعة أساسية يتم تهريبها عبر الحدود وبيعها داخل اليمن بزيادة تصل إلى 200 في المائة عن السعر الأصلي الذي تشترى به. وفي الجانب المقابل فقد ساهم انعدام الوجود الأمني اليمني في المناطق التي احتلها الحوثيون في زيادة وتيرة تهريب القات إلى السعودية، وهو المنتج المخدر الذي يجد رواجاً في اليمن ويمنع تداوله في المملكة.

وفي التقرير تحدث نازحون يمنيون عن استخدام الحوثيين لتجمعات المدنيين للاختباء بهم هرباً من نيران القصف للجيش اليمني، وهو التصرف الذي أجبر الآلاف على ترك بيوتهم بعد أن وجدوا أنفسهم تحت وابل من الرصاص خاصة في مديرية ساقين وجبال شدا والمناطق المتاخمة للشريط الحدودي مع السعودية.

وبالطبع كانت القرى الحدودية مصدر تموين للمتمردين حيث تروي شهادات السكان المحليين أن الحوثيين كان يدخلون إلى تلك القرى كمواطنين عاديين غير حاملين للسلاح ويتزودون بالمؤونة ثم يعودون أدراجهم.

في إحدى ليالي الحرب في رمضان حاولت أن أكتشف حقيقة على الشريط الحدودي الملتهب، كان التهريب قد تحول من مجرد تجارة إلى مطلب حياة أو موت بحثاً عن توفير أبسط مقومات الحياة للسكان الذين جففت الحرب أسواقهم من المنتجات الغذائية، وانقطعت الكهرباء واشتد عليهم الحصار.

نقاط التماس مع الحرب ازدادت وهي تتجه نحو وتيرة أعلى من العنف كل يوم، أزيز طائرات الجيش اليمني وهي تلقي بقذائفها على جبال شدا ومنطقة الملاحيط، والمشردون اليمنيون المعلقون على الحدود وموجة جديدة من تهريب الدقيق والبنزين وقلق داخلي يزداد من هذا البركان المتأجج على الحدود.

في المقابل لم يكن للسعودية أي تحرك أمني ملاحظ يوازي حجم الخطر المتمدد على خاصرتها الجنوبية، ضمن عشرات الشائعات التي تلقي بها الحرب مع حممها كل يوم كان الحديث يدور عن مرابطة وحدات من الجيش السعودي على الحدود في زي حرس الحدود تحسباً لأي طارئ. رواية كانت مبررة بعد أن أصبح الحوثيون هذه المرة يردون التحية على جنود حرس الحدود من خلف الشريط الحدودي في ظل غياب تام للجيش اليمني.

الحوثيون حينها سجلوا اعتراضاتهم أكثر من مرة على إنشاء سياج حديدي عازل على الحدود، بدأه حرس الحدود لمنع عمليات تهريب القات والدقيق والمخدرات والحشيش. فذلك السياج كان بمثابة إغلاق رئة تنفسوا منها طويلاً!

أحداث الحرب السادسة لم تنهك المواطن اليمني في صعدة وحده، والذي وجد نفسه مشرداً يعيش على مساعدات الأمم المتحدة في مخيم المزرق الواقع جنوبي الملاحيط حيث الحرب، بل إنها فرضت حصاراً معاكساً على اليمنيين المقيمين بصورة

غير نظامية داخل القرى الحدودية، حيث قطعت عنهم طرق العودة إلى أهاليهم، وأجلت موسم العودة السنوي الذي يتزامن مع عيد الفطر المبارك إلى حين تنطفئ مدافع الحرب. فالملاحيط التي تعد مركز الانطلاق بالنسبة للمتسللين ومهربي القات والسلاح والمخدرات على الشريط الحدودي، كانت هي محور الحرب. وحولها كانت تتضارب الأخبار بين إعلان المتمردين السيطرة عليها ونشر الحكومة لبيانات تؤكد تكبد المتمردين لخسائر بشرية عالية هناك.

انقضى شهر رمضان وعيد الفطر المبارك بشكل مأساوي خالٍ من الفرح، كان من مفارقات الحرب في ليالي العيد أن تختلط أصوات الألعاب النارية المعبرة عن الفرح بأصوات الانفجارات والمدافع والقنابل المعبرة عن الحرب.

القذائف التي تضل طريقها عن جنود الطرفين وتسقط في القرى الحدودية ازداد حضورها، وكانت هي وقود القلق في نفوس القرويين من خطر هذه الحرب. قرابة عشر قذائف تنوعت بين قذائف «آر بي جي» تابعة للمتمردين وقذائف هاون، وأخرى تلقي بها المقاتلات الحربية اليمنية، إحداها ضربت مسجداً في قرية المظبر وتساقطت البقية في قرى البتول وسودانة وقرية سودانة، كل هذه القذائف لم تصب أحداً. إلا أن المواطنين لم يكونوا في انتظار الضحية الأولى للحرب كي يشعروا بالخطر. كان القلق يتزايد والمطالبة باتخاذ موقف علني هي حديث القرويين الذين

وجدوا أنفسهم في معادلة الحرب طرفاً ثالثاً غير آمن. ولكن إجراءً لم يُتخذ حتى اللحظة.

في الثاني عشر من أكتوبر (تشرين الأول) من العام 2009 شهدت الحرب تأثيرها الأعنف منذ بدايتها على القرى السعودية في الشريط الحدودي، ففي الساعة الثانية عشرة و٤٥ دقيقة من نهار ذلك اليوم كانت طائرة حربية يمنية تحلق فوق سماء قرية الخقاقة التي لا تبعد سوى مسافة كيلومترين عن الشريط الحدودي. وكانت مشاهدة الطائرات اليمنية وهي تحلق في تلك المنطقة أمراً معتاداً مع الحرب السادسة، إلا أن هذه الطائرة أخطأت في تصويب قذيفتها فأصابت مركزاً صحياً في القرية ودمرته وأصابت عاملين في المستشفى.

كانت صور الدمار التي تناقلتها مواقع الإنترنت تشبه تلك التي يبثها التلفزيون اليمني من صعدة، كنت أتابع الحادثة من مكاتب جريدة الشرق الأوسط في الدمام في انتظار بيان يصدر في أي لحظة من وزارة الداخلية أو الدفاع أو حرس الحدود يعلق على الحادثة أو موقف رسمي يتم إعلانه. بعد أن وصلت تأثيرات الحرب إلى المساس بأرواح المواطنين وإثارة حالة من الرعب في قرى الحد الجنوبي لا تشبهها إلا تلك الحالة التي أحدثها انتشار وباء حمى الوادي المتصدع قبل 9 أعوام.

غير أن بياناً لم يصدر، وإجراءً لم يُتخذ. على الميدان

هرعت الجهات الأمنية والصحية إلى الموقع وقامت بتطويقه وإسعاف المصابين وفتح تحقيق في الحادثة، كل ما تمكن الصحفيون الخروج به من تلك الحادثة هي تعليقات المواطنين الغاضبين التي لم يجرؤ أحد على كتابتها، وتعليق مقتضب من المتحدث الإعلامي بصحة جازان، وشهادات عيان. وفي اليوم التالي لم تكن الجهات الأمنية وحدها من اختارت الصمت، بل الصحف لم تنشر شيئاً. وحدها صحيفة «الاقتصادية» أشارت للحادث وكأنه حادثة عادية.

غيرت تلك الحادثة مجرى تعامل القرويين مع الحرب التي تكبر وتتجذر كل يوم بجانب منازلهم ومزارعهم، وباتوا أشد إيماناً بأن الحدود السياسية الوهمية لن توقف هشيم النار من الامتداد. أصبح القلق والخوف مع سماع كل دوي انفجار أو تحليق طائرة مختلفاً هذه المرة. فهم لا يثقون في دقة تصويبات طرفي الحرب وليسوا مستعدين لدفع فاتورة الأخطاء.

مواطنون من قرية الجابري والخقاقة التي شهدت الحادثة قالوا بأنها متوقعة، واختاروا النزوح مبكرين قبل أن تندلع المواجهات في جبل دخان.

في مجالس القرويين كانت مطالبة شعبية تتنامى بوجوب تدخل الجيش السعودي استباقياً قبل أن يقع ما لا تُحمد عقباه. كان عليهم الانتظار لعشرين يوماً فقط ليشهدوا ذلك التدخل الذي لم يتصوروا تبعاته كما توالت.

في المشهد السياسي كان الحوثيون يزجون باسم السعودية في أحداث الحرب السادسة متهمين إياها بدعم الجيش اليمني بالسلاح وتنفيذ الطيران السعودي الحربي لضربات جوية في صعدة انطلاقاً من قاعدة خميس مشيط. وعرضت قناة الجزيرة القطرية لصور أسلحة تحمل الشعار السعودي، زعم الحوثيون أنهم حصلوا عليها من الجيش اليمني ضمن ما حصدوه من غنائم.

الرياض لم ترد، غير أن محافظ صعدة ذكر أن تلك الأسلحة هي من ممتلكات الحوثيين أنفسهم وتعود إلى ستينات القرن الماضي، حيث كانت السعودية تدعم الملكية الإمامية ضد الثورة اليمنية. في أذهان السكان المحليين كانوا يتمنون فعلاً لو تزجّ السعودية بجيشها في الحرب وتضع حداً للخطر الذي يزداد حضوراً كل يوم. كانوا يستشرفون مستقبلاً غير واضح المعالم، خاصة وأن الحرب كان تزيد الدولة اليمنية ضعفاً وتقوي شوكة المتمردين وتزيد حضورهم.

كانت الآمال معلقة في قدرة الجيش اليمني على السيطرة والانتصار أو على هدنة تنهي حالة القلق. ولكن أي من هذه الخيارات لم يكن يحمل أي مؤشر على أرض الواقع، بين مصافحات الحرب بقذائفها التي تضل طريقها في المدى الفاصل بين دولتين، وفي أحاديث النازحين اليمنيين الذين باتوا يشغلون أي بقعة صالحة للعيش في تلك القرى وهم يحكون عن الجحيم في جبال صعدة.

وفي مشاهد الحرب التي تحولت من مجرد أصوات، إلى إمكانية مشاهدة قوافل الجيش اليمني وعصابات المتمردين في القرى المتاخمة للحدود. وأصبح الشعور بالأمان مطلباً عزيزاً لقروي يسكن في قرية لا تبعد عن خط النار أكثر من سبعة كيلومترات، وينام على أصداء التفجيرات ويستفيق على مشاهد الحرب وقصص النازحين.

انتهى شهر أكتوبر (تشرين الأول) من العام 2009 وقد شحن جو الشريط الحدودي بالحرب وتداعياتها، رغم أن الإعلام السعودي ظل غاضاً النظر عن تطورات الحدود ومخاوف السكان المحليين، وخارج مدى الصوت والمشاهدة، لم يكن أحد يكترث أو يعلم بالمعاناة التي ستنفجر قريباً هناك.

في خضم تلك الأجواء كانت حادثة مقتل رجل أمن سعودي وإرهابيين في الدرب شمال المنطقة قد صرفت الانتباه للحظات وخلقت للمنطقة حديثاً آخر، إلا أن العلاقة لم تنفك بين الحادثتين، فالإرهابيون قدموا من اليمن واخترقوا الشريط الحدودي متسللين ليضفوا على سجل الحدود المتخم بالقلق رصيداً إضافياً.

أطل شهر نوفمبر (تشرين الثاني)، وانفجرت الحدود التي احتملت طوال سنوات كل ما ينتظره ضابط مهووس بالأمن كي يتخذ قراره بكيِّ هذا الجرح الملتهب.

أيام الحرب

إن كان هناك من يمكنه أن يعلم بالمصيبة قبل أهلها، فهم الصحفيون! حيث يأتيك الخبر دون أن تبحث عنه بمجرد أن يعرف الناس أنك تمتهن المتاعب.

في نهاية أكتوبر (تشرين الأول)، بدأ الحوثيون بالزج باسم السعودية كطرف دخل في جبهة الحرب، ويقدم تسهيلات للجيش اليمني. ولأي قارئ لتاريخ الحدود اليمنية السعودية واتفاقيات التعاون بين الجانبين سوف يبدو هذا التدخل ـ لو وُجِد ـ مقبولاً. فالدولتان هما السعودية واليمن. والحوثيون، بحسب تصنيف الحكومة اليمنية، حركة تمرد إرهابية تسعى لزرع الفتنة وتمزيق وحدة البلد. وقد يصبح من الوارد أن تتعاون اليمن والسعودية في أي لحظة لضبط أمن الحدود الذي أصبح على كف عفريت بسبب تطورات الحرب والمشردين وتزايد عمليات التهريب واختراق الحدود في ظل عدم وجود أي تواجد أمني يمني في الجهة المقابلة لإيقاف هذا المسلسل.

لم يفهم الحوثيون اللعبة من هذا المنطلق، وقدموا أنفسهم كدولة ثالثة في المنطقة تعترض على تدخل السعودية في شؤونها

الداخلية. وقالوا في بيانات لهم صدرت مع بداية شهر نوفمبر (تشرين الثاني) بأنهم تقدموا إلى حرس الحدود السعودي بطلب عدم السماح للجيش اليمني باستخدام «جبل دخان» كمنطقة للهجوم والالتفاف على قوات المتمردين. خلف جبل دخان كانت جموع المتمردين تملأ المنطقة تماماً.

صدرت التعليمات لحرس الحدود السعودي بالتزام أماكنهم وعد المبادرة بالرد على احتجاجات الحوثيين. يوم الاثنين الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) عاد الحوثيون وأعلنوا عن أن الجيش اليمني استخدم أراضي سعودية لمهاجمة المتمردين في محور الملاحيط، مكررين مطالبتهم السعودية بالبقاء على الحياد. في الجانب اليمني كانت هذه الأخبار تبشر بتحول في مسار الحرب على صعدة، أما الجانب السعودي فلم يدرك بعد أي تحول سيحدثه الحوثيون في مسار المعارك، حتى بعد أن انطلقت الرصاصة الأولى للحرب. ما عدا ذلك كان أوامر قد صدرت لحرس الحدود بالمرابطة على الحدود استعداداً لأي طارئ قد تشهده المنطقة. وكان أفراد حرس الحدود يقصون عن مشاهداتهم اليومية لأفراد التمرد الحوثي وهم يتجولون على الشريط الحدودي باسطين سيطرتهم التي عززتها انتصاراتهم على الجيش اليمني في منطقة الملاحيط.

هذه الانتصارات حولت الحوثي وجنوده في أذهان العامة من

ساكني القرى، من مجرد حركة تمرد مسلحة إلى أسطورة خارقة للعادات.

كانت الأقاويل تتحدث عن استخدام الحوثيين للسحر في معاركهم وقدرتهم عن طريق تضليل الجيش اليمني ودفع أفراده لإلقاء أسلحتهم وتسليم أنفسهم.

لم يكن الجندي الحوثي يتسلح في المخيلة الشعبية بالرشاش والـ «آر بي جي»، بل كان يسلب كتائب الجيش اليمني إرادتها باستخدام أعمال السحر. إحدى الحكايات تتحدث عن جندي يمني يفتح النار على كتيبته ويقتل زملاءه في الجبهة تحت تأثير السحر، وثانية عن قدرة الشعوذة الحوثية على تضليل المقاتلات اليمنية وتحويل قنابلها من الأهداف الحوثية إلى ضرب الجيش اليمني نفسه.

أسطورية الحوثي تعززها اتهامات الحكومة اليمنية بتلقي الحوثي لدعم من جهات خارجية، وأن رجاله ذوو تدريب عسكري عالٍ، وهي الاتهامات التي ستثبتها الحرب مع السعودية لاحقاً.

فوق ذاك يندفع الحوثيون بمحرك عقدي ديني، فهم يقاتلون من أجل نصر الإسلام وموت أمريكا وإسرائيل. والطريق إلى الجنة محفوف بجثث الجنود اليمنيين الذين جاؤوا لدحر الفتنة! مشهد متناقض بين الجانبين، وكل قتيل يسقط فهو شهيد! كانت الفتوى الأكثر تداولاً في أوساط المتمردين هي فتوى «مفتاح

الجنة» التي تنص على أن من يقتل جندياً يمنياً فله الجنة، وكلما ارتفعت رتبة ذلك الجندي أو الضابط احتل القاتل مرتبة أعلى! بل إن روايات تتحدث عن أن ذلك المفتاح ليس كائناً رمزياً يشير إلى قيمة الشهادة التي يبحث عنها المقاتلون الحوثيون، بل هو مفتاح حقيقي يسلم للقاتل بعد إنجاز مهمته!

الأعجب من ضراوة تلك الحرب هو الشعار الذي يعلّقه مقاتلون في أعمار المراهقة بعد أي نصر يحقق، مرددين «الله أكبر، الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود والنصر للإسلام»، لم يكن حتى من المقبول أن تبرر هذه الشعارات بأنها محاولة استلطاف لرأي الشارع، ولم يكن المتمرد الحوثي يقدم للشارع اليمني أي مطالب مدنية أو تنموية ضد الحكومة. كل ما يبدو هو عبث يدفع فاتورته الشريان اليمني في خرق لما اعتاد اليمنيون على ترديده بأن اليمني لا يقتل يمنياً.

الأجندة الخارجية كانت هي التفسير الوحيد المقبول لحرب تشن وتضطرم دون نهاية واضحة أو هدف محدد.

في تلك الفترة ظهر تطور آخر كان له تأثيراته المستقبلية. كانت إحدى حكايات الحدود تضيف لوتيرة القلق رصيداً آخر، حيث يتحدث القاطنون على الشريط الحدودي على نشاط واسع للمتمردين في حفر الخنادق على الشريط الحدودي، وخاصة في الجبال المحيطة بمنطقة جبل دخان في الجزء اليمني المطل

مباشرة على الحدود السعودية. وكان مؤشر الخطر في تلك الخنادق أنها بمثابة إعلان ضمني عن نقل الحرب لتتاخم الجار الذي بقي بعيداً عن نيرانها منذ أن اشتعلت رصاصتها الأولى. وعلى خلاف بقية الحدود الدولية للسعودية مع جيرانها السبعة، فهذه المنطقة تتميز بكثافة الوجود السكاني حتى نهاية آخر شبر من الأرض السعودية، مما يجعل من الشريط الحدودي مجرد فاصل وهمي على الخريطة لا يمنع قاطني الجانبين من التواجد في بيئة واحدة يتأثرون بظروفها دون اعتبار للون جواز السفر الذي يحملونه.

لم يُمنح ذلك التطور أي اهتمام رسمي في حينه، رغم أن الخنادق هي من تكنيك الحرب الذي استخدمه الحوثيون بكثافة طيلة حروبهم الماضية للمقاومة وإدارة عملياتهم العسكرية. وهو ذات التكنيك الذي سيكون له دور فاعل في إطالة أمد الحرب وتكبيد الخسائر البشرية للجيش السعودي.

في الثالث من نوفمبر (تشرين الثاني)، وفي منتصف ظهيرة يوم الثلاثاء عاد الحوثيون لتسجيل اعتراضاتهم أمام دوريات حرس الحدود المتواجدة في مركز خلد. دار حوار بين قائد الدوريات المرابطة في جبل دخان، كما هو المعتاد خلال الفترة الأخيرة، بوجوب منع الجيش اليمني من استخدام الأراضي السعودية، ولكن هذا الحوار لم ينتهِ بالكلمات فحسب، بل تحول إلى الرصاص. وانطلقت الرصاصة الأولى للحرب لتستقر في جسد

الجندي تركي القحطاني من قوات حرس الحدود السعودي، ثم دمر الحوثيون آلية عسكرية، وصدرت الأوامر لحرس الحدود بالتراجع وإجلاء المواطنين وعدم الردّ إلا بما تقتضيه الحالة من تبادل إطلاق النار لحماية أرواحهم. تلك لم تكن الرواية الوحيدة لكيفية اندلاع شرارة الحرب، فالحوثيون ادّعوا أن السعوديين هم أول من بادر بإطلاق النار. أيّاً تكن الرواية، وحدهم الذين شهدوا الحادثة يعلمون، غير أن طبول الحرب قرعت.

في المساء بدأت أخبار الحرب بالانتشار، وذلك بوصول أول كتيبة من الجيش السعودي إلى جازان قادمة من القاعدة العسكرية في خميس مشيط. تلقيت اتصالاً من صديق يخبرني بأنه شاهد مدرعات الجيش تخترق قريتهم متجهة شرقاً إلى حيث جبل دخان. حينها كانت أخبار الجبهة وتأثيراتها على الجانب السعودي قد تحوّلت إلى ما يشبه الخط الأحمر الذي ينبغي الصمت عنه.

محاولة كتابة خبر صحافي بدأت بشهادات عيان. قريب يعمل في المستشفى الذي نقل إليه المصابون زوّدني باسم الجندي القتيل وحالات الجرحى. كان معظمهم وهم 11 جندياً قد أصيبوا نتيجة السقوط بين صخور جبل دخان أثناء محاولتهم الانسحاب، وليس نتيجة إطلاق النار.

خاطبت مدير التحرير في صحيفة الشرق الأوسط من أجل

نشر الخبر، فاشترط عليّ حينها الحصول على تعليق من مصدر رسمي أو التزام الصمت، ولكن كل الجهات نفت علمها بالحادثة.

ورغم ذلك أرسلت الخبر الذي أجزم أنه كان أول مادة أُعدّت عن اندلاع الحرب بخلاف ما تداولته الصحف الإلكترونية والمنتديات. وفي الصباح التالي كان من المحبط أنها لم تنشر احتياطاً. كانت الفرصة الذهبية أمام شاب مبتدئ في المهنة ليضع اسمه على حدث سيصبح قضية عالمية.

حينها كان الحوثيون قد أعلنوا في بيان لهم أنهم تمكنوا من السيطرة على موقع جبل دخان والقضاء على المعتدي. وجاء الخبر الأول للحرب كالتالي:

أعلن المكتب الإعلامي التابع لحركة التمرد الحوثي أنه تمكن من الاستيلاء على جبل دخان الواقع على الشريط الحدودي بين السعودية واليمن. وجاء في نص البيان الصادر عن الحوثيين «سيطرنا على موقع جبل الدخان، وتم القضاء على المعتدي».

يأتي ذلك في وقت ذكر فيه شهود عيان للشرق الأوسط عن اندلاع مناوشات على الشريط الحدودي سمعت خلالها أصوات لتبادل إطلاق النار في موقع جبل دخان مع تواجد مكثف لقوات حرس الحدود السعودي، بينما أفاد آخرون بمشاهدتهم لآليات عسكرية تتجه إلى

قرية الغاوية شرقي جازان جنوب غربي السعودية حيث يقع جبل دخان الذي ذكر الحوثيون أنهم استولوا عليه. وقال شاهد عيان: «سمعنا أصوات تبادل لإطلاق النار في منطقة الجبل منذ ساعات الظهيرة، وشاهدنا تحركاً مكثفاً لحرس الحدود»، مضيفا بأن عدداً من أقاربه العاملين في جهاز حرس الحدود قد تم استدعاؤهم إلى المنطقة.

وعلى جانب آخر ذكرت مصادر طبية استقبال مستشفى صامطة العام الواقع في جنوب المنطقة لحالات إصابات في صفوف أفراد حرس الحدود وصل عددها ـ إلى لحظة إعداد هذا الخبر ـ إلى 11 حالة تتراوح إصابتها بين الخطيرة والمتوسطة. بينما ذكرت المصادر وفاة أحد المصابين في مستشفى أحد المسارحة العام وسط منطقة جازان.

من جانبه رفض المتحدث الإعلامي باسم وزارة الداخلية السعودية العميد منصور التركي في اتصال هاتفي مع «الشرق الأوسط» التعليق على الأمر موضحاً أنه لم ترد أية معلومات عن هذه المناوشات.

وذكر مواطنون من قرية الغاوية، حيث تجري الأحداث، أنهم غادروا القرية قبل غروب شمس الأمس خوفاً من تطور الأوضاع.

وكانت القرى الواقعة على الشريط الحدودي مع اليمن قد شهدت سقوط قذائف حربية غير مقصود خلال عمليات تحليق للطيران اليمني، وقعت إحداها دخل مركز صحي وأدت إلى إصابة العاملين به.

ويقع جبل دخان، الذي ذكر الحوثيون أنه تم الاستيلاء عليه، إلى الجنوب من محافظة الحرث شرقي جازان في المنطقة الحدودية بين السعودية واليمن، حيث توجد مراكز تابعة لحرس الحدود السعودي، ويعد أحد أشهر خطوط التهريب بين المنطقتين، ولا تتجاوز المسافة الفاصلة بينه وبين الملاحيط التي اندلعت فيها مواجهات الحرب السادسة في أغسطس (آب) الماضي سوى كليومترات معدودة.

لم يُنشر الخبر، ولكن وزارة الدفاع السعودية فاجأت الإعلاميين في الوقت الصعب حيث تكون الطبعات قد أرسلت، ببيان أعلنت فيه وقوع مواجهات في جبل دخان، وأن السعودية سوف تتخذ كل ما من شأنه حماية حدودها وضمان سيادتها. وحدها صحيفة الوطن السعودية تمكنت من التقاط الخبر وبه تصدرت طبعتها لليوم التالي.

كانت تفاصيل البيان متطابقة مع الخبر أعلاه الذي لم يجد نصيبه من النشر.

في مساء ذلك اليوم بدأت الحدود تشهد عهداً جديداً من سجلها المضطرب. أُجلي سكان القرى الحدودية المتاخمة لجبل دخان ومن ضمنها قرية الغاوية تجنباً لأي طارئ، وهي القرية التي كانت أشهر من علم على رأسه نار، في مسلسل تهريب القات والدقيق حيث لا يفصلها عن اليمن سوى مسافة الصوت، وبات جبل دخان الذي يقع معظمه داخل الأراضي السعودية تحتله جموع المتمردين الحوثيين، الذين لم يعوا إلى اللحظة أنهم قدموا المبرِّر لإنهاء خطرهم المتجذر، بعد أن جاء اعترافهم بانتهاك سيادة الحدود السعودية.

وتحول جبل دخان من جبل واقع ضمن سلسلة طويلة من جبال السروات لا يحضر إلا في أحاديث مهربي القات، الذين يستخدمونه طريقاً احتياطياً في حالة التشديد الأمني حيث يشتهر بوعورته. كان من الطريف أننا نحن سكان تلك القرى لم نكن نعرف شيئاً عن ذلك الجبل قبل أحداث الحرب.

انتهى ذلك اليوم وكل الاحتمالات مفتوحة في أذهان قاطني القرى وهم يشاهدون جارتهم ـ الحرب ـ منذ خمس سنوات. ولكن أقصى تلك الاحتمالات لم يذهب إلى ما هو أبعد من تدخل عسكري محدود لزيادة السيطرة على الحدود وضبط الخروقات التي شهدتها مؤخراً. الإجابة التي جاءت في صباح اليوم التالي كانت مفاجأة للجميع دون استثناء.

○○○

صباح الأربعاء لم يكن مجرد بداية لنهاية أسبوع اعتيادي في تقويم قاطني قرى الحد الجنوبي، بل كان يوماً طويلاً وثقيلاً في الذاكرة، ومزدحماً بالأخبار والأحداث والترقب والقلق. ارتفعت الشمس في شروقها فوق جبال صعدة الغربية، ومعها أقلعت المقاتلات السعودية من قاعدة خميس مشيط صوب جبل دخان لتطلق نيرانها التي ظلت صامتة طيلة 19 عاماً في أحداث تحرير الكويت.

يتذكر القرويون في محافظة الحرث تفاصيل ذلك الصباح جيداً. مشهد الطائرات الحربية وهي تطلق نيرانها صوب جبل دخان ثم تعود قاصدة ناحية الشمال. كان بالإمكان جلياً مشاهدتها. وكانت الأخبار ترد متتابعة عن تقدم الجيش السعودي صوب منطقة جبل دخان حيث اندلعت الأحداث.

طلبة المدارس عادوا بعد الحصة الثالثة، ولم يعودوا إلى مدارسهم بعد ذلك حتى اللحظة. ولا يدرون إن كانت فصولهم التي احتوت شخبطاتهم الأولى ما تزال قائمة أم دكّت جدرانَها الحرب.

القرى القريبة والواقعة في محيط جبل دخان كان أهلها أول من بدأ مسلسل النزوح، الذي امتد ليشمل خلال أسبوع واحد كافة قرى المحافظة، وتتحول المنازل والأحواش والمجالس التي أدمنت السمَر إلى مدينة أشباح لا يقطع صمتها إلا أصوات المدفعية وأزيز الطائرات الحربية.

مخيم للإيواء... كانت الجملة التي لم نسمعها إلا من

دارفور، أو من أي بقعة أخرى لا صلة لنا بها، إلا من مذيع نشرة التاسعة ومن إمام المسجد في دعاء القنوت في رمضان.

يومها لم ينتظر أحد أخبار التاسعة مساء، كانت الأمهات تضعن أيديهن على قلوبهن في انتظار عودة أبنائهن والكل ينتظر التعليمات الرسمية.

الحوثيون وبعد أن بدأ الطيران السعودي ـ الذي ادعوا طويلاً بأنه يشارك في الحرب، في قصف تجمعهم في جبل دخان ومنطقة الملاحيط ـ أصدروا بياناً ينفون فيه سيطرتهم على أية منطقة داخل السعودية أو انتهاك سيادة الحدود، بينما كان بيانهم الذي صدر يوم الثلاثاء يعلن ضمنياً ذلك. نددوا بما وصفوه تدخل السعودية واعتداءها على الأراضي اليمنية. الحوثيون كانوا يمارسون دور السلطة وليس دور التمرد، وأول تفسير لبيانهم ذلك كان صدمتهم من ردة الفعل السعودية التي جاءت لتصفي حساباً تراكم منذ خمس سنوات وتضاعف خلال الأشهر الأخيرة.

في أذهان كبار السن الذين عايشوا مشاكل الحدود كان مشهد الطائرات وهي تقصف جبل دخان يذكِّر بمشهد مماثل حين كانت الطائرات تلاحق فلول الإمامية اليمنية وهي تهرب إلى داخل الأراضي السعودية في ستينات القرن الماضي إبان الثورة اليمنية. الخوف ذاته، وأصوات الحرب لم تغير نغمتها منذ خمسة عقود رغم أن الغرض يبدو معاكساً هذه المرة. الأصغر سناً لم يذكرهم مشهد القصف سوى بطائرات الهيلوكوبتر التي

كانت تحوم في سماء الحرث والعارضة إبان أزمة حمى الوادي المتصدع قبل تسعة أعوام حيث اعتمد عليها في رش المناطق الموبوءة.

بعد أن أصبح التدخل السعودي واضحاً أمام العيان، كان أهالي الحرث يتبادلون البشرى بنهاية الحوثي. فكل ما يحتاجه الجيش السعودي هو أيام قليلة لإزالتهم من على الأرض. ولكن الأمر لم يكن بالأسطورية التي صورتها غلبة كفة الجيش بمعداته وبسلاح الجو أمام عصابة ذات مستوى تسليح منخفض. فهم كانوا يقاتلون في الأرض التي خبروا كل شبر فيها منذ سنوات مريرة من التمرد.

التعليق الرسمي الوحيد صدر من أمير المنطقة الأمير محمد ابن ناصر الذي وصف ما حدث في جبل دخان بأنه «حدث عابر» وتجنب الإشارة إلى الحوثيين بالتعيين.

حل المساء ولم تحل معه نهاية ذلك اليوم الطويل، رغم الهدوء الذي ساد الشريط الحدودي الذي اكتسب مسميات جديدة مثل «الجبهة» و«خط النار» و«أرض المعركة». فما زال الخبر هو العملة الأغلى في ذلك اليوم، بين عين مفتوحة على الإنترنت وأخرى على التلفاز. كانت الأذن تلتقط أحاديث الناس ولا تنفك عن الاتصال بالواقفين على حدود الحدث لتتساءل عن خبر جديد.

❍ ❍ ❍

هل كان الجيش السعودي ذاهباً إلى مناورة تدريبية. هذا هو المصطلح الذي تبادر إلى المخيلة الشعبية التي انتظرت الفصل الأخير من حكاية الحوثيين طويلاً. ولكن، ورغم النصر الذي حققه الجيش السعودي، لم يكن حصاد 5 أعوام من خبرة الحرب والقتال والنوم في حضن البندقية ليذهب سدى، دون أن يتمكن الحوثيون من إطالة مدى الحرب والاستفادة من الطبيعة الجبلية التي يخوض فيها الجيش السعودي أول معركة جبلية له في دولة معظمها صحراء.

فأولى مفاجآت الحرب جاءت في ثالث أيامها. يوم الخميس حين سقطت أربع نساء من أسرة واحدة ضحية لضربة جوية أخطأت هدفها وضربت منزلهن الكائن في قرية القرن. وسائل الإعلام المحلية أضافت الجرم لقذائف المتمردين الحوثيين، ولكن السكان المحليين الذين خبروا جارهم المتمرد يعلمون أن قذائفه لا تصل إلى هذا المدى. وفوق ذاك فهم شاهدوا الضربة الجوية وهي تسقط من طائرة حربية في مساء ذلك اليوم في تصويب خاطئ.

كان حدثاً مؤسفاً خفف من حالة الابتهاج التي استقبل بها التدخل العسكري وكشف للناس أن للحرب وجوهاً عدة من ضمنها أرواح الأبرياء.

ولكن من حسنات الحرب، إن كان ثمة حسنة، أن الخسائر في صفوف المدنيين انحصرت فقط في هذه الأسرة.

لقاءاتي الصحفية بشهود المعركة من جنود وضباط كشفت تفاصيل الحادثة حيث أخطأ الطيار في تصويب الهدف بعد أن كان من المفترض أن تسدد الضربة إلى المتسللين. وتقول الرواية أن ذلك الطيار أصيب بوضع نفسي سيّئ بعدها.

بثت الحادثة الرعب في نفوس المدنيين الذين بدأوا مسلسل النزوح طلبا للأمان وهرباً من مفاجآت الحرب في ظل اشتداد غارات الطيران ووصول كتائب الجيش السعودي إلى محيط جبل دخان واحتلال مواقع حرس الحدود.

تحولنا في تلك الأيام إلى محللين عسكريين نحلل وننتقد الخطط العسكرية التي نراها في الميدان، وكانت المفاجأة أن تلك التحليلات أثبتت صحتها سريعاً في مسار الحرب.

فالخشية كانت قائمة من دخول الجيش إلى منطقة لا يجيد التعامل معها، ويعرف الحوثيون كل شبر منها.

لم تنتظر أحداث الحرب طويلاً لتفسر ذلك، حيث كان حادث المظلي المقدم سعيد العمري محفوظاً في سجل الحرب بحزن. لم تغنه شجاعته وفرقته معه حيث تقدموا إلى عمق المنطقة التي استولى عليها الحوثيون وفجأة انهمر عليهم وابل الرصاص من كل جانب حيث كان الحوثيون يختبئون في خنادقهم في الجبل ويكشفون أي تحركات. سقط العمري وجنود معه ولم يمكن الوصول إلى جثته إلا بعد أسابيع كما روى رفاقه في تلك المهمة وكما نشرتها الصحف.

مشايخ من قبائل الحرث عرضوا حينها المساعدة للاستفادة من خبرتهم في المنطقة وطرقها وأوديتها، وفي رسم خطط التعامل مع الوجود الحوثي على الحدود، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

رابع أيام الحرب كان اليوم الذي بدأت فيه الحرب فعلياً، ففيها سقط أول القتلى من الجانب السعودي بمقتل المظلي العمري، ووصل فيه مؤشر الرعب والقلق إلى حد اختار معه أهالي القرى المتاخمة للشريط الحدودي مفارقة قراهم طلباً للأمان. يومها تسللت مجموعة من الحوثيين واشتبكوا مع قوات من الجيش في مناطق في عمق القرى التي كانت ما تزال مأهولة بالسكان، في قريتي القرن والدفينية بعد أن تنكروا في أزياء نسائية ودخلوا ضمن مجموعات النازحين اليمنيين الذين لجأوا إلى السعودية. ويومها بدأت المدفعية التي جرى نصبها في مواقع متعددة ومواجهة لجبل دخان بإطلاق أول حممها في اتجاه المتمردين في المواقع التي سيطر عليها المتسللون في محيط الغاوية ومجدعة وغيرها من القرى التي قفزت من هامش الشريط الحدودي إلى واجهة نشرات الأخبار.

كان يوم الجمعة 6 نوفمبر (تشرين الثاني) هو اليوم الذي اتضح فيه بجلاء إلى أين تسير وتيرة المواجهات. فالأمر ليس مرتبطاً بتدخل عسكري محدود لمعالجة حدث عابر، بل هي حرب بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

دفع حادث تسلل مجموعات من الحوثيين إلى أوساط المدنيين إلى تأمين أرواح السكان وإصدار أوامر بإجلائهم، فبعد أن كان المخيم الأول الذي نصب لاستقبال النازحين من القرى المحيطة بجبل دخان في الخوبة مركز الحرث وجد أهل الخوبة أنفسهم مطالبين بالرحيل إلى مخيم إيواء آخر.

السبت خامس أيام الحرب بدأت فيه التحركات البرية صوب جبل دخان، وبدأت القرى بتلقي أوامر النزوح واحدة تلو الأخرى. ووصل مساعد وزير الدفاع إلى الجبهة: ولم يحل المساء إلا ومحافظة الحرث تحت أمر شامل بالإخلاء. التحرك البري الأول أوقع عدداً من الأسرى من الجنود السعوديين في قبضة الحوثيين. وصلت الصور الأولى للأسرى صادمة لكل متابع للحرب، وأحد لم يصدق حينها، وعزاها إلى أكاذيب حوثية واختلاقات. إلى تلك اللحظة لم يكن الوعي بحقيقة الحرب قد تشكل في أذهان العامة، ولم يتيقنوا أن الرصاص المتطاير في جبل دخان يدور في الاتجاهات الأربعة، واحتمال سقوط ضحايا وارد بين الجبهتين. السعودية التي كانت ما تزال تتجنب الإشارة علنياً إلى أنها تخوض حرباً ضد الحوثيين، كانت تفضل استخدام مصطلح المتسللين. وقد تحدث مساعد وزير دفاعها عن وجود مفقودين ينتظر عودتهم ولم يسمِّهم بالأسرى. ضمنياً اتضح أن الحوثيين تمكنوا فعلياً من أسر جنود سعوديين كما قتلوا آخرين.

بعد أن ألقت الحرب أوزارها، خرج ضباط وعسكريون

سعوديون عن صمتهم في أحاديثهم مع الإعلاميين ووصفوا ما حدث بأنه كان استعجالاً في السيطرة على المواقع التي يتواجد فيها الحوثيون، مع عدم تقدير قوتهم وطبيعة المنطقة الجغرافية وأماكن انتشارهم. ووجود الجنود الواقفين على الخط الأول للحرب يتعرفون على عدوهم من واقع المعركة وليست الخطط المسبقة على الورق.

إلى أين الوجهة؟ هذا هو السؤال الذي كان يدور فالقلق من تنامي تأثير الحرب يتزايد مع تزايد وتيرتها.

كنت أعيش أحداث تلك الحرب بوظيفتين، صحفي يبحث في عشرات الشائعات والأخبار التي تتناقلها مختلف المصادر عن مادة يومية يقدمها إلى صحيفته، ومواطن تقع قريته في محيط الحرب وتنتظر نصيبها من أوامر الإخلاء والنزوح.

عشرات الوفود الإعلامية بدأت بالتوافد نحو دائرة الأحداث، وكلٌّ يحاول قراءة المشهد من مصادره الخاصة. لم يكن ثمة متحدث رسمي باسم الجيش ولا بيانات يومية تلخص الحالة بعيداً عن اجتهادات الصحفيين ومغامراتهم في الثقة بروايات الجنود الواقفين على خط النار، كما كان الحال في حرب الخليج التي كانت آخر حرب خاضها الجيش السعودي.

كان من ضمن التعليمات التي تلقيناها كصحافيين ـ في إطار تغطيتنا للمعارك ـ عدم الإشارة إلى القتال كمعركة مع الحوثيين،

بل هو تدخل ضد المتسللين الذين يخترقون سياسة الحدود. للوهلة الأولى بدت هذه التعليمات غريبة وليست ذات معنى، ولكنها كانت خطوة مليئة بالدهاء في تبرير التدخل العسكري الذي تقوم به السعودية. ففي حين كانت بيانات الحوثيين المتلاحقة وما يبثون عبر مواقعهم تحاول إقناع العالم أن ما يحدث هو اعتداء على الأراضي اليمنية، لم يكلف المسؤولون السعوديون أنفسهم حتى الإشارة إلى الحوثيين باللفظ في خطاباتهم. رغم أن الجميع يعلم من هم أطراف المعركة، ولكن السعودية نجحت في تأطير وتبرير تدخلها بآلاف الجنود وبسلاح الجو والمدفعية وسلاح البحر أيضاً. إنها لحماية حدود انتُهكت ولإيقاف عمليات التسلل وضبط أمن الحدود. تلك هي المهمة!

الأحد سادس أيام الحرب، يوم لن يُنسى، وسيظل في ذاكرة الحرث وفي ذاكرة كل من شهد نزوح عشرات الآلاف دفعة واحدة. مشهد لا يشبهه إلا نفرة الحجاج من عرفات إلى مزدلفة. فمنذ ساعات الصباح الباكر وبعد أن أعلنت السعودية منطقة القتال بعمق عشرة كيلومترات داخل الحدود التي يقع في محيطها 240 قرية يقطنها قرابة 50 ألف مواطن حسب الإحصاءات الرسمية، حزم القرويون أمتعتهم راحلين عن الأرض التي يشكل طينها تفاصيل ملامحهم ووجوههم، وكانوا وهم يفعلون ذلك غير مصدقين أن الحرب التي جاوروها لخمس سنوات قد انفلتت خارج محيطها وحلت بدارهم!

في ذلك المساء عدت إلى قريتي الصغيرة التي تقع خارج نطاق العشرة كيلومترات ولكنها تعيش في نطاق الخوف والقلق، وكان التواجد مع مقر البعثة الإعلامية لصحيفة الشرق الأوسط يستغرق كل الوقت. بمجرد أن ولجت منزلنا أدركت ماذا تعني الحرب في وجوه أطفال أنهكهم الخوف! على غير عادة استقبلني إخوتي بالأحضان وكأنهم يبحثون عن موطئ آمن، باحثين عن خبر يطمئنهم ويحدثهم عن هذه الطائرات التي يهز أزيزها أبواب منزلهم أين سترمي بحممها؟

في مجلس القرية، وعلى أصداء أصوات التفجيرات المتلاحقة في ذلك المساء، وفي حضرة القات، حضرت اجتماعاً يقرر فيه أهل القرية قرار النزوح من عدمه، وخطة الخروج. خط النار يبعد عن هذا المجلس 16 كيلومتراً، ولكن حادثة الجمعة التي تسلل فيها الحوثيون في أوساط المدنيين، ثم خبر القذيفة التي سقطت خطأ فأوقفت الأنفاس في صدور أربع نساء عزل، ونزوح كل القرى المجاورة، عجل بقرار الرحيل.

وفي يوم الأحد كان الزحف البري للجيش السعودي قد تقدم إلى ما وراء جبل دخان وانسحب المتسللون. كانت بشرى نهاية وشيكة للحرب ولكن ذلك لم يحدث.

الاثنين، سابع أيام الحرب وقد انقضى الأسبوع الأول منها، كان البحث عن مادة تكمل الصفحة المخصصة لمتابعة الحدث

قد أصبح مهمة أصعب. فكل ما تظفر به من أفواه المسؤولين الرسميين هي تصريحات عامة عن تقدم الجيش وتطهير الحدود وإسكات مصادر النار على الشريط الحدودي، وحكايات الناس التي تخلط المعقول باللامعقول وتبث عشرات الأخبار المتناقضة لا يمكن الوثوق بها.

كان الصحفيون يصفون أرض المعركة على بعد 30 كيلومتراً منها. كنت الصحفي الوحيد الذي يعرف حدود أرض القتال جيداً وهي التي عاش فيها عقدين من عمره، وفورة الحماس لمعرفة حقيقة ما يجري تحفز لخوض مغامرة والوصول إلى خط النار! رافقت البعثة الصحفية التي تتكون من محرر آخر ومصور إلى مقر قيادة العمليات في العين الحارة. نصيبك من الإجابات صمت المسؤولين وتأكيدهم على أنهم غير مخولين بالحديث، وجندي من الشرطة العسكرية ينذرك بمغادرة بوابة المقر! اتخذنا طريقاً مختصراً يمر بداخل القرى، فوجدنا أنفسنا داخل مدينة أشباح. الأرض، وكأنها لم تُسكن أبداً، والمنازل وكأنها في عصر الحكايات حيث لا تسكنها إلا الأشباح والطرقات خالية. كانت المنطقة قد أطلق عليها «منطقة قتل» ومن يدخلها فهو يحمل كفنه على كتفه. وحده صاحب بقالة صغيرة في قرية المعطن الواقعة في غرب المحافظة وجدناه يجمع أغراض بقالته الصغيرة استعداداً للمغادرة.

على بعد أقل من 2000 متر من الشريط الحدودي وجدنا

نقطة تفتيش وحيدة، فيها جندي نصحنا بعدم التقدم في مغامرتنا مشيراً إلى أن الطريق الذي سنعبره للتو تم قصفه من قبل مقاتلة حربية، وأشار إلى موضع الدخان المتصاعد الذي خلفته القذيفة. لم يكن ذلك كافياً ليزرع الخوف في صدورنا، أكملنا الرحلة ونحن نتساءل: إذا كان الجيش ينفذ عملياته ضد المتسللين على الحدود، فإن أحداً لن يكترث لنا إن أصابتنا قذيفة هنا! كان الطريق الذي نسير عليه بمحاذاة الشريط الحدودي فارغاً تماماً. وحدها مزارع الذرة الرفيعة قد استوت على سوقها في انتظار الحصاد المؤجل بعد أن هجرها مزارعوها.

التفت إليّ رفاق الرحلة الذين لم يخبروا هذا المكان من قبل متسائلين: إلى أين تأخذنا؟ كانت محاولة الخروج بقصة صحافية مختلفة هي الهدف. كيف؟ لا أحد يعلم. تصورنا أن نجد كتائب الجيش منتشرة في كل بقعة من المحافظة ولكن المفاجأة أن أحداً لم يكن هناك، رغم أن سيارتنا كانت قد جالت في نصف المحافظة. كنا نتجول في النصف الشمالي من المحافظة، أما كتائب الجيش فقد كانت ترابط في النصف الجنوبي منها حيث جبل دخان. مررنا بقرية الجابري التي ستتحول إلى واجهة الأخبار لاحقاً، حيث شهدت واحدة من أقسى معارك الحرب. وكغيرها كانت صامتة تحكي عن أناس كانوا هنا. تحولت المغامرة من محاولة قراءة المشهد خلف نقاط التفتيش والحواجز إلى الدعوات بالخروج سالمين.

في نهاية الرحلة وحين اقتربنا من الخوبة، حاضرة الحرث، أحاطت بنا دورية من حرس الحدود على مدخل المحافظة واقتادتنا نحو مركز تابع للشرطة. كانت الخوبة قد امتلأت بالجيش وقوات الطوارئ والشرطة وعشرات المدرعات والآليات العسكرية، حينها بدأنا ندرك شيئاً مما يدور في الشريط الحدودي. الكل كان غاضباً من وصولنا إلى هذا العمق في المنطقة المحظورة، والأسئلة انهالت: كيف استطعتم الوصول إلى هنا؟ لم ينقذ الأمر سوى استخدام الوساطات والتعهد بعدم تكرار المغامرة مرة أخرى.

من طرائف المشهد أن حاملات الجنود التابعة للجيش كانت تمر والجنود يرددون «برا على برا.. يا حوثي» وكأنهم ذاهبون إلى مشاهدة مباراة وليس إلى معركة.

المانشيت الذي ظهرت به القصة الصحافية في اليوم التالي عن استخدام الحوثيين لخنادق أعدت مسبقاً في هجومهم على الحدود السعودية كان العنوان الأبرز الذي تناقلته وكالات الأنباء العالمية والمحطات التلفزيونية. كان اختياراً بين المخاطرة والخروج بمادة مميزة، أو الاكتفاء بقراءة عامة ومقتصرة على المشهد. ولكن أحداً منّا لم يرغب في تكرار التجربة.

انتهى الأسبوع الأول للحرب ومعه بدا جلياً أن الحوثيين يملكون نقاط قوتهم في المعركة، وإن كانوا مجرد عصابة لن تنجح في

مقاومة جيش مكتمل التجهيزات. فهم أهل الجبل، والمعركة تدور في أرضهم وبمقدورهم أن يكشفوا من كهوفهم في الجبال المطلة على الشريط الحدودي تحركات الجيش ومن ثم المباغتة.

في الأسابيع الأولى من الحرب سقط عشرات القتلى في الجانب السعودي في إطار تحركاتهم للسيطرة على كافة المواقع على الشريط الحدودي وإسكات مصادر إطلاق النار. في أحاديث الناس كان الحديث يجري حول وجوب الاستعانة بمن يعرفون المنطقة جيداً والاستفادة من معرفتهم بجبال الحدود وتضاريسها، ولكن أحداً لم يكن يدرك كيف تصمم الخطط العسكرية في غرفة القيادة والسيطرة.

❍ ❍ ❍

دخلت الحرب أسبوعها الثاني، وما زالت الطائرات الحربية السعودية تواصل دكها لمجاميع الحوثيين في جبال صعدة. كان الوجود الحوثي في الأراضي السعودية قد انتهى إلى أن حرب العصابات التي يمارسونها على طريقة «اضرب واهرب» ما تزال مستمرة. عصابات من 10 إلى 20 شخصاً تحاول التسلل إلى عمق تجمعات الجيش السعودي وإحداث أكبر قدر من الخسائر البشرية. بالطبع كانت طرق العودة موصدة والمهمة انتحارية. إحدى هذه العصابات تمكنت من الوصول إلى بعد أمتار من مقر القيادة العسكرية للحرب.

كان التساؤل الذي فاجأ الجميع: لماذا لم تُحسم الحرب في ظرف ساعات في ظل القوة الهائلة؟ وأبسط قراءة للمشهد العسكري في المنطقة تشير إلى أن ذلك الأمر كان مقدوراً عليه، ولكن بفاتورة دموية للحرب. فالقناصة الحوثيون المنتشرون في كهوفهم التي تملأ جبال صعدة وتتاخم الحدود، كانوا مستعدين بالصدور العارية لمواجهة الجنود السعوديين في تقدمهم بفرحة وقنصهم، غير أن الخسائر الأولية والمفاجئة للحرب دفعت إلى تغيير الخطط العسكرية واختيار مسار حرب بطيء. ومعه عملت المدفعية والطيران على دك المواقع التي يتسلل إليها الحوثيون قبل أن تزحف إليها القوات البرية. خاصة وأنها الحرب الجبلية الأولى للجيش السعودي والسادسة للمتمردين الحوثيين.

الثابت في أحداث الحرب التي تروى بعشرات الروايات والمصادر المختلفة، ومن واقع تأكيدات الضباط السعوديين الذين يديرون الحرب، أن الجيش السعودي فوجئ بأنه في مواجهة عصابات مدربة بأساليب لا تتقنها الجيوش. التفسيرات الشعبية، والإشارات الرسمية الضمنية كانت تتجه إلى إيران بوصفها من يتحمل وزر هذه الحرب! بل إن مساعد وزير الدفاع السعودي أشار إلى وجود دولتين تدرب فيهما الحوثيون، وأن أسلوب قتالهم لا ينتمي إلى ما يفعله أفراد العصابات عادة، بل هي أساليب جيوش مدربة.

في أحداث الأسبوع الثاني، وما يتجنب الضباط السعوديون

الحديث عنه، هو سقوط جنود سعوديين بفعل قذائف سعودية! ستة جنود قتلوا في حادث واحد بعد أن أصابتهم قذيفة مدفعية تواجدوا في محيط هدفها نتيجة لخطأ في التنسيق. آخرون قتلوا في ضربة جوية خاطئة ضمن مشاهدات رواها جنود قادمون من جبهة الحرب.

أسلوب العصابات المتبع من قبل الحوثيين أطال أمد الحرب والقتال إلى أسبوع ثالث، ولكنه كان أسبوعاً ساخناً هذه المرة. فالحوثيون أدركوا التصميم السعودي على وضع حد لوضع لم تعد الرياض تحتمله، وقد أعلنت أنها لن توقف الحرب حتى يتراجع الحوثيون عن حدودها عشرات الكيلومترات. وبعد أن كانت الحرب تمضي على وتيرة مواجهات تنشط في فترة الليل تقوم بها عصابات تستخدم أساليب التمويه والهجوم المباغت واحتلال مواقع في جبال الدود ودخان ثم الانسحاب منها، تحول المتمردون إلى أساليب الهجوم بعصابات كبيرة يصل عددها إلى المئات. في أسلوب انتحار جماعي يستهدف توسيع معدل الخسائر البشرية. أتذكر وصف ضابط سعودي لما يحدث «ببساطة إنهم ينتحرون».

ولكن ذلك الانتحار لم يكن يمضي دون القدرة على تحقيق خسائر بشرية، وإطالة أمد الحرب واستنزاف القوى. في المقابل كانت الخسائر البشرية في صفوف الحوثيين تقدر بالمئات. أصدقاء الأمس من مهربي القات في صعدة تحدثت إليهم ضمن

تغطياتي الصحفية للحرب وكان يقولون: «جثث قتلى المتمردين تملأ الجبال وتزكم الأنوف». لم يكن الأمر مستبعداً فحجم القوة العسكرية السعودية التي استخدمت في الحرب كان هائلاً جداً.

ولكن تلك القوة لم تتمكن من إلغاء عامل الأرض الذي استخدمه الحوثيون ببراعة في التمويه وإدارة الحرب والمباغتة ومن ثم التراجع إلى داخل جبال صعدة. وكانت الروايات التي تصف تلك الأساليب وصلت إلى حد يستعصي على التصديق لمن لم يشاهدها عياناً. غير أن أبرزها كان الاختباء في المنازل الواقعة على الشريط الحدودي فترات النهار ثم المباغتة في الليل، وإيهام الطائرات أثناء عمليات قصفها بتحركات وهمية.

ومع انقضاء الأسبوع الثالث من الحرب الذي امتاز بمعارك طاحنة كانت هي الأعنف منذ بداية الحرب بين مئات المتمردين والقوات السعودية. ومعه عززت القوات السعودية نفسها بمركبات حديثة ساهمت في إدارة كفة الحرب في نحو معاكس، حيث انضمت آلية البرادلي والتي تعد حاملة جنود مدرعة ومتخصصة في اقتحام الخطوط الأمامية للحرب والوصول إلى تجمعات المتمردين وإيقاع خسائر بشرية. ففي الوقت الذي أرهق فيه القناصة عمليات التقدم البرية كان دخول هذه المركبة قد رفع فارق التجهيز العسكري بين الجانبين إلى السقف ووضع حداً للمعارك الرئيسية وعمليات التسلل الجماعية.

مع نهاية شهر نوفمبر (تشرين الثاني) كان الهدوء قد عاد نسبياً إلى الشريط الحدودي وتحولت المعارك إلى صد لعمليات التسلل الرئيسية، وظل الطيران الحربي يحلق بين فترة وأخرى. ذلك الهدوء أعاد إلى السكان الذين يعانون مرارة النزوح خلف نقاط التفتيش أملاً بأن تنتهي الحرب ويؤذن لهم بالعودة قريباً. ولكن ذلك لم يحدث بالسرعة التي انتظروها.

غير أن الحرب لم تنهِ سجل مفاجآتها كاملاً! فبعد أن فشلت محاولات الحوثيين المستمرة في جبال دخان والدود والرميح، بادروا إلى فتح جبهة رابعة للقتال هي قرية الجابري. وهي من القرى التي مررنا بها في الأسبوع الأول من الحرب، فكانت خالية من أي تواجد عسكري. لقد كان يتم الحديث في الصفوف الخلفية للقتال على أن الجيش السعودي لم يقم بتكثيف تواجده على طول الشريط الحدودي والذي يسيطر الحوثيون في المقابل عليه من الجانب اليمني. وكان جلياً أن الحوثيين بإمكانهم فتح جبهة جديدة للقتال من أي موضع على الشريط الحدودي، في حين أن العمليات الحالية متمركزة في جبال دخان والرميح والدود. فعل الحوثيون ذلك وأعلنوا سيطرتهم على قرية الجابري، وهي قرية لا تبعد سوى أقل من 2000 متر عن الشريط الحدودي وتقع تحت جبال ملحمة والفتنة التي تكشف قرى المحافظة.

وفي حين أن السعودية بادرت إلى نفي سيطرة الحوثيين على أي موقع داخلها، فقد تمكن المتمردون من زرع ألغام في كافة

مزارع ومنازل القرية وعلى مداخلها ولجأوا إلى التمركز في الجبال المحيطة بها. كانت خطة لحمام دم وخسائر بشرية. مع توجه القوات السعودية نحو القرية للسيطرة عليها، وفقا لرواية جنود شهدوا المعركة، تمكن الحوثيون من محاصرة الفرقة التي تدخلت للسيطرة على القرية بزرع ألغام في محيطها لمنع الجنود من المغادرة وتبادل إطلاق النار معهم. مرة أخرى حضرت الطبيعية الجغرافية واستخدام الحوثيين كهوفهم في الجبال من أجل السيطرة على سير المعركة. ولكن ذلك لم يمنع عامل التفوق العسكري من حسم المعركة لصالح الجيش السعودي وإعادة السيطرة على القرية باستخدام آليات البرادلي وطائرات الأباتشي والمقاتلات الحربية في دك موقع الحوثيين. وكذلك القرية!

كانت السعودية قد أعطت المتمردين مهلة 48 ساعة لمغادرة الجابري، وكانت الجبهة الجديدة التي فتحها المتمردون قد أحرجت موقف السيطرة على كامل الحدود الذي تم إعلانه مسبقاً. وخرقت جو الهدوء الذي ساد الحدود لأسبوعين. ولكن معركة طاحنة أخرى كانت في انتظار الطرفين. الحوثيون هذه المرة عادوا باستخدام الألغام والقناصة والدروع البشرية، في محاولة أخرى مستميتة لرفع معدل الخسائر البشرية.

بعد انتهاء مهلة الـ 48 ساعة، لم تتوانَ المدفعية والمقاتلات الحربية عن دك القرية بما فيها من المتسللين. كانت هزيمة قاسية ارتفعت فيها خسائر الحوثيين ليعلنوا بعدها

انسحابهم الكامل من الأراضي السعودية وتقديم عرض سلام لوقف الحرب. جاء ذلك في نهاية شهر ديسمبر (كانون الأول) والحرب تكمل شهرين منذ بدايتها. وتضمّن بيان الانسحاب اعترافاً بالهزيمة واعترافاً متأخراً بخرق سيادة الأراضي السعودية. كما تعمد البيان إحراج السعودية ووصف مواصلتها للعمليات العسكرية بالعدوان على الأراضي اليمنية.

كان حادثة الجابري بمثابة نهاية للمعارك الرئيسية للحرب باستثناء بعض المناوشات التي كان تشهدها الحدود، ومواصلة الطيران السعودي دكه لمواقع الحوثيين في جبال صعدة. إلا أن الإعلان السعودي الرسمي عن انتهاء العمليات الرئيسية للقتال لم يأتِ إلا في نهاية شهر يناير (كانون الثاني) بعد أكثر من 80 يوماً من اندلاع الحرب. ومعها كشفت الحرب الغطاء عن عشرات القصص الإنسانية والعسكرية التي شهدتها الخطوط الأمامية للحرب.

في هذه الأثناء أعلن عن مقتل قائد المتمردين عبد الملك الحوثي للمرة الثالثة! فعلى صفحات الصحف قتل عبد الملك الحوثي ثلاث مرات، كان أولها في أغسطس (آب) من عام 2004 ضمن أحداث الحرب الأولى التي كان يقودها شقيقه حسين بدر الدين الحوثي، ولكنه ظهر مجدداً ليتولى قيادة المتمردين في حروبهم التالية قبل أن يتم الإعلان عن مقتله في أكتوبر (تشرين الأول) من عام 2009 قبل التدخل السعودي. ولم تدم حالة الوفاة

تلك طويلاً بعد أن ظهر في مقطع فيديوي بعدها. وكانت آخر مرة أدخل فيها عبد الملك الحوثي إلى قائمة القتلى في شهر ديسمبر (كانون الأول) من عام 2009، ولم يسجل له أي ظهور حيّ بعدها وهو الأمر الذي يرجح حقيقة مقتله.

في مجالس القرى حيث كان الكل يحاول متابعة ما يجري على الحدود، تحول الجنود العائدون من جبهة الحرب إلى محور للاهتمام، وكانت أحاديثهم عن الحرب تُتلقى بلهفة واسعة ورغبة في معرفة المزيد. كان السؤال الأبرز: لماذا طال أمد الحرب؟ وما هي حقيقة الخسائر البشرية في صفوف الحوثيين. ولم تختلف الإجابات عن التفسيرات التي خرج بها المسؤولون السعوديون في وقت سابق غير أنها أُلحقت بتفصيلات أكثر.

فالمنطقة الجبلية فرضت على قوات الجيش أن تقاتل وتتدرب على المكان في الوقت ذاته، وكشف الحوثيين من مواقعهم في جبال صعدة لأرض المعركة، والقدرة القتالية غير المتوقعة التي فاجأ بها الحوثيون الجميع.

في المشهد السياسي كانت تدور معركة أخرى، فرغم عشرات البيانات التي اعتاد الحوثيون إصدارها منذ بداية الحرب السادسة والزجّ باسم السعودية حتى قبل تدخلها العسكري. أخيراً ورد اسم الحوثيين على لسان المسؤولين السعوديين ووجهوا للحوثيين الاتهام بأنهم كانوا خلف أحداث الحد الجنوبي. كانت

خطوة ألغت الوجود السياسي الذي حاول الحوثيون تقديم أنفسهم من خلاله منذ بداية الحرب باعتراضهم كطرف مستقل على استخدام الجيش اليمني للأراضي السعودية، ومن ثم تقدمهم بطلب إلى القيادة السعودية لوقف الحرب وحقن الدماء. ولكن السعودية اختارت التعامل معهم كنكرة في المشهد العام والتشديد على أنها تقوم بحقها في فرض سيادتهم على حدودها.

انتهت الحرب بموافقة الجانب الحوثي على التوقف عن مهاجمة الأراضي السعودية، ونزع القناصة المنتشرين على الحدود، وإعادة الأسرى. كانت تلك المرة الأولى التي تعترف فيها السعودية بقيام الحوثيين بأسر جنود سعوديين بعد أن كانت تعدهم ضمن المفقودين.

ولكن قصص الحرب لم تنتهِ، فكل ما ورد في هذا السياق هو سيناريو بخطوط عريضة لمسار الحرب، وأهم أحداثها وكيف عاشها المواطن الجازاني. غير أن قصة الحرب تظل ذات تفاصيل أوسع وسيناريوهات خفية، عشرات الروايات تقع ويتداولها الناس حول حادثة الجابري وكيفية انتهاء الحرب وحجم الخسائر وماذا جرى على الحدود. غير أن هذه المعلومات لا يمكن تأكيدها دون مصادر موثوقة، كل ما يرد هنا هو روايات لضباط سعوديين وقفوا على حدود المعركة أو أحداث عايشتها من خلال وجودي في نطاق الحرب صحفياً ونازحاً هجّرته الحرب من قريته الصغيرة.

في التفاصيل التي كشفت عنها الحرب بعد نهايتها، فإن التدخل السعودي جاء كضربة أجهضت مخططات التوسع الحوثية على امتداد الشريط الحوثي، كانت فلول المتمردين تقاتل ببسالة من أجل الوصول إلى منفذ بحري في منطقة «ميدي» المحاذية. كان يرددون في بدء حربهم السادسة التي رسمت خط أحداثها على امتداد الشريط الحدودي أنهم سيصومون شهر رمضان المبارك في ميدي، ولاحقاً أصبح هدفهم الوصول إلى المنفذ في عيد الفطر. تدخلت السعودية في وقت كانت فيه القوات اليمنية تتراجع في محور الملاحيط على الشريط الحدودي لتغير مسار الأحداث في صعدة وتفقد الحوثيين جزءاً كبيراً من القدرة القتالية التي اكتسبوها على مدى سنوات. ذلك التوسع البحري كان سيفتح لحركة التمرد أفقاً للحصول على الأسلحة في وقت لم يعد فيها خافياً أن الحوثيين يحصلون على دعم خارجي.

كان المحرك الديني هو الموجه الذي يدفع بشبان ومراهقين إلى أتون حرب يعلمون أن خطوط العودة فيها موصودة، وموازين القوة محسومة، مدفوعين بفتاوى تخبرهم أن أبواب الجنة تفتح على حدود السعودية والعبور على الصراط يتم من خلال رصاص الجيش السعودي.

بعد نهاية الحرب عاد الإعلاميون إلى تغطية الأحداث ومحاولة قراءة الأحداث من بدايتها إلى النهاية، بعد أن صدرت

توجيهات بسحب الوفود الإعلامية المشاركة في تغطية أحداث الحرب والاكتفاء بالبيانات الرسمية الصادرة عن الجيش السعودي أو المؤتمرات الرسمية. ومعه تراجع مستوى التغطيات الإعلامية للحرب في الصحافة المحلية، وتسيّدت المنتديات والصحف الإلكترونية المشهد للباحثين عن المعلومة.

حوار مع عبد الملك الحوثي

في خضم أحداث القتال وشح مصادر المعلومات لم تنقطع المحاولات للخروج بقصة صحافية مختلفة.

كانت لذة المانشيتات والصفحات الأولى تغري بتكرار المحاولة في كل جانب. كان المكتب الإعلامي للحوثيين قد أبدى تفاعلاً إعلامياً كبيراً خلال أيام الحرب مستغلاً كل وسيلة إعلامية لنشر بياناته وأخباره. ورغم أن المكتب لم يتمكن من تقديم معلومات تعكس سير المعركة فعلاً، إلا أن إجراء حوار مع قائد المتمردين الحوثيين ظل أمنية تراود أي صحفي يعمل في جبهة الحرب.

بعد اتصالات مع المكتب الحوثي وافق محمد عبد السلام المتحدث الإعلامي على الإجابة على أسئلة الحوار مكتوبة عبر الإيميل.

لم يحمل الحوار قيماً إضافية لتغطيات لصحيفة الشرق الأوسط للحرب. واعتذر مدير التحرير قائلاً: «سيكون الحوار مجرد مكسب للحوثيين وليس ذا قيمة للقارئ». ورغم أن الحوار

لم تتم الإجابة عليه من عبد الملك الحوثي، كما يبدو، وهو الحال في معظم الحوارات المكتوبة التي يجاب عنها بالنيابة. ظل الحوار في أرشيف ذاكرة الحرب وهذا نصه:

❖ اتهمتم الطيران الأمريكي بالمشاركة في العمليات الحربية، ونفت الخارجية الأمريكية الأمر. ما هي الإثباتات التي تملكونها لأمر خطير كهذا؟

- بسم الله الرحمن الرحيم. الطيران الأمريكي نفذ عدة غارات جوية استهدفت عدة مناطق وأسفرت عن سقوط ضحايا من المدنيين ولدينا ما يثبت ذلك. إلا أنّا لا نحتاج إلى إبراز بعض الأدلة لمجرد وسائل الإعلام، ولذلك نطلب تشكيل لجنة عربية أو دولية لتقصي الحقائق، ومستعدون للتفاهم معها وإبراز الأدلة الواضحة. وقد نبهنا إعلامياً على تصريحات قائد عسكري أمريكي أكد فيها تدخلهم في مواجهتنا في لقاء مع قناة العربية، ولكن المهم إذا كان هناك تعاطٍ مسؤول مع المسألة، فالأدلة جاهزة ومن المهم معرفة أن المسألة باتت واضحة لدى المجتمع. أضف إلى ذلك الرصد لمسار الطيران الذي يكشف الطيران الآتي من السعودية والآتي من صنعاء أو الحديدة والآتي من البحر. هذه بعض الشواهد التي نرى أنها تكفي للإعلام وأما لغير الإعلام فلدينا الأدلة اللازمة.

وقد سببت الغارات الجوية الأمريكية استياءً كبيراً في محافظة صعدة لدى كل المواطنين وتسببت في زيادة الكراهية

للولايات المتحدة، وغيرت نظرة الكثير من المواطنين إلى إدارة أوباما التي كانوا يتوقعون أن تكون مختلفة عن إدارة بوش. فأثبت لهم العدوان الظالم أنها لا تختلف عنها. ونتوقع إذا استمر العدوان الأمريكي الجوي أن يؤدي إلى سخط شعبي أكبر والتفاف جماهيري أوسع. ومن الملاحظ أنها زادت قناعة الكثيرين بالتدخل الأمريكي في العدوان لما لوحظ من نشاط مكثف للأقمار الصناعية على المناطق التي يتم استهدافها بالطيران مع معرفة الجميع أنه لا النظام اليمني ولا النظام السعودي ينتج أو يمتلك أقماراً صناعية عسكرية.

❖ كشفت تقارير مخابراتية عربية وغربية أنكم تتلقون دعماً صريحاً من إيران بالشكل المعنوي والمادي، هل ما زلتم لدى موقفكم برفض وجود أي دعم إيراني؟

ـ ما ذكرتموه هو مجرد ادعاءات من بعض الأجهزة التي تصدر تقارير مسيسة لا تستند فيها إلى حقيقة، ومجرد التقارير المحشوة بالإدعاءات ليست حجة ولا يمكن الاعتماد عليها طالما أنها لا تستند إلى حقائق وأدلة واضحة. ونحن نرى في موقف الجمهورية الإسلامية الإيرانية الداعم للسلام والمعارض للحرب موقفاً إيجابياً تجاه الجميع، ويلحظ مصلحة المنطقة بشكل عام وليس لصالح طرف دون طرف، وهم لا يرتاحون لموقفها لأنهم يريدون من الجميع تأييد العدوان والتصفيق لما يحدث من جرائم بحق المدنيين.

❖ أثار صمودكم طوال هذه الفترة في وجه العمليات العسكرية ضدكم استفسارات حول طبيعة القوة التي يملكها تنظيمكم. ما هو تعليلكم لهذا الصمود؟ وألا ترون أنه يثبت تلقيكم الدعم من جهات خارجية؟

ـ من يقرأ التاريخ ويطَّلع على نضال الشعوب وجهادها لا يفاجأ بما يجري، ذلك أن الشعوب لديها قدرة كبيرة على المواجهة ولديها التحمل لتقديم التضحيات الكبيرة، ولديها الخيارات المتاحة لخوض مواجهات طويلة الأمد، وقد استفدنا كثيراً من عمقنا الشعبي، إضافة إلى الإيمان بمظلوميتنا وعدم إتاحة أي خيار آخر، فلم يكن أمامنا من خيار إلا المواجهة، لأن موقفنا دفاعي، ونحن لم نتخذ قرار الحرب، إنما فرضها المعتدون علينا، وهذا أيضاً أعطانا دفعاً قوياً. فإما أن نترك المجال للمعتدين لإبادتنا بدم بارد وتصفيتنا بدون ثمن أو نبذل قصارى جهدنا في الدفاع عن أنفسنا ونستعين بالله فهو خالقنا وإلهنا وربنا، عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير. وهذا ما قررناه، فقد رأينا الصواب والحق أن نتحرك في الدفاع عن أنفسنا آخذين الكثير من الدروس من تجارب الشعوب التي واجهت خطر الاستعمار والإبادة ومن تجارب الآخرين في هذا العصر، ومن تجاربنا الميدانية، ولجأنا إلى الله ليعيننا، ورتبنا وضعنا على أساس النَفس الطويل ولو عبر الأجيال.

❖ تعيش عدد من المناطق في صعدة في أزمة غذاء طاحنة حسب تقارير أممية. ما هي الحلول التي تقدمونها لهذه الأزمة في ظل وجود إشارات بأنكم المتسبب في حدوثها؟

– من يدعي أن السبب في الأزمة الغذائية هو نحن فليس بمنصف، وهو يحمِّل الضحية المسؤولية. ومن الواضح أن النظام اليمني في البداية هو الذي شن الحرب، وهو الذي يحاصر شعبه في المناطق التي يعتدي عليها، وتبعه في ذلك النظام السعودي الذي أغلق المنافذ البرية وقطع منها كل الإمدادات الغذائية وفي مقدمتها القمح، ثم وضع على الحدود سياجاً لمنع إخراج أي مواد غذائية، ثم قرر أن يباشر الغزو والعدوان على عدد من المناطق اليمنية.

❖ فتحتم جبهة رابعة مع السعودية عبر قرية الجابري. هل ترون أن لديكم القدرة على مواجهة الجيش السعودي؟ وما المصلحة من الاستمرار في وضع الهجوم مع السعودية؟ ألا ترون بأنه عمل انتحاري؟

– لم يكن لدينا أية رغبة للدخول في مواجهة عسكرية مع أحد، وهذا هو الحال مع السعودية، إلا أن النظام السعودي فرض علينا المواجهة عندما أشترك في العدوان علينا جواً وبراً وبحراً، وعندما تحرك الجيش السعودي وتجاوز السياج متقدماً صوب

المناطق التي هي مناطقنا لم يكن لنا من خيار إلا المواجهة، ونحن نعتقد أنه لا مصلحة للنظام السعودي من هذا العدوان ولا من الاستمرار فيه ولا ضرورة له، إنما تكون نتائجه عكسية وسلبية. وقد أخطأ النظام السعودي خطأً فادحاً وتاريخياً بقصفه للأسواق والقرى والمدن كما فعل في قصف سوق بني معين في رازح، مع أن بني معين لم يكونوا محسوبين علينا بل قد خاضوا ضدنا حربين، إلا أن الطيران السعودي استهدف سوقهم وهو مزدحم بالمتسوقين الذين يجلبون لأطفالهم ونسائهم الغذاء والحاجيات الضرورية مما أسفر عن مقتل سبعين رجلاً وجرح أكثر من مائة.

وحادثة أخرى في النظير في رازح أيضاً، حيث استهدف الطيران السعودي المدينة المزدحمة بالسكان ومعظم أهلها ليسوا موالين لنا، وأسفر العدوان عن مقتل أكثر من خمسين ضحية، أطفالاً ونساءً ورجالاً، وهناك الكثير من الحوادث المشابهة. واستهداف البيوت في مناطق كثيرة يعطي الكثير القناعة أن الخيار الأفضل هو الذهاب إلى جبهات القتال وإلا قتلهم القصف العشوائي للطيران والقصف الصاروخي في بيوتهم وأسواقهم ومساجدهم. هذا الأسلوب الخاطئ والمتهور الذي يعتمده النظام السعودي في المواجهة يفيدنا كثيراً ويوفر لنا الدعم الشعبي اللازم.

أما خياراتنا المتاحة للدفاع عن أنفسنا فهي كثيرة وهي للميدان وليست للإعلام.

إلا أني بدافع الأخوة والحرص على حسن الجوار أنصح النظام السعودي بالتوقف من حرب لا ضرورة لها، فالنظام اليمني يبتهج ويسخر معتبراً أنه تمكن من استدراج النظام السعودي واستغفاله وتوريطه ليحارب أبناء الشعب اليمني.

❖ هل توجد أية مفاوضات مع الجانب السعودي أو اليمني للوصول إلى حلول غير القتال؟ وهل أطلقتم نداءات لحل الأزمة بشكل سلمي؟

- نحن لا نمانع من الدخول في حوار مع أي طرف سواء مع النظام اليمني أو النظام السعودي ولكن حالياً لا يوجد حوار بسببهم. وليس الإشكال من جانبنا، وأنا أتعجب كثيراً من الملك عبد الله الذي تبنى حوار الأديان كيف لا يقبل بحوار أبناء الدين الواحد، وشعبين متجاورين مصلحتهما في السلم والأخوة وحسن الجوار والاحترام المتبادل. وإذا كانت المملكة تقدمت بمبادرة للسلام مع إسرائيل وأقنعت الأنظمة العربية بتبنّيها حتى سمّيت المبادرة العربية، كيف تصرّ المملكة على الحرب على أبناء الشعب اليمني؟!

ومن المؤكد أنَّا سعينا كثيراً لأجل وقف الحرب واعتماد لغة الحوار والتفاهم، وأبدينا تجاوباً مع بعض المساعي التي كانت قد بدأت من بعض الحريصين على مصلحة البلدين لكن الآخرين قاموا بوأدها قبل أن تصل إلى نتائج.

❖ تشير التقارير الإخبارية إلى خسائر بشرية مرتفعة في صفوفكم. هذه الخسائر ألا تنذر بانهيار قوتكم في مواجهة الجيش اليمني والسعودي؟ وكيف هي تكتيكاتكم في مواجهتها؟

ـ الخسائر في صفوف المقاتلين هي الأقل، وهي ضئيلة جداً ولا تشكل أية خطورة. فالمقاتل يحسب حسابه أمام الاحتمالات، والمقاتل له أساليبه في مواجهة القصف، وله خبرته اللازمة وعنده الاستعداد والانتباه والاهتمام، ولكن الخسائر الكبيرة في صفوف المدنيين في الأسواق والمساجد والقرى والمدن، ونتائجها سلبية على المعتدين، وهي تعطي الآخرين قناعة أنه لا جدوى من قعودهم في بيوتهم وأن الأفضل لهم أن يقاتلوا وإلا أبادهم العدوان بدون ثمن.

❖ كيف تقيمون الوضع الإنساني في صعدة؟ وبرأيكم من المسؤول عنه؟

ـ الوضع الإنساني بالطبع مأساوي، ولكن المتحمل للمسؤولية هم المعتدون الذين اتخذوا قرار الحرب وفرضوها بعدوانهم، ورفضوا الحوار والتفاهم، وعمموا عدوانهم ليشمل البيوت والمساجد والأسواق والمستشفيات والمدارس مع أن جبهات القتال الميدانية معروفة، لكنهم ركزوا على غيرها أكثر منها وجعلوا حربهم شاملة لتطال المدنيين والمجتمع عموماً والمناطق النائية عن جبهات القتال واستهدفوا حتى مخيمات اللاجئين.

❖ الأسرى السعوديون في حوزتكم، كم عددهم وما هو وضعهم؟ وماذا تنوون بشأنهم؟ هل يمكن أن يشكلوا أداة ضغط في عملية مفاوضات قادمة؟

ـ الأسرى السعوديون موجودون ويعاملون معاملة إنسانية وبأخلاق الإسلام ونحن نتحفظ عن تقديم أية معلومات أخرى للإعلام.

❖ هل تشعرون بخطر تقويض وجودكم في ظل العمليات العسكرية غير المسبوقة؟

ـ لا نشعر بذلك على الإطلاق، واطمئناننا تجاه المستقبل أفضل من الحاضر، وأملنا في الله كبير، والتحرك الشعبي الذي له جذور شعبية وعقائدية صلبة لا يمكن أن ينتهي بقوة السلاح كما أثبتت التجارب. أضف إلى ذلك أنها حرب على المدنيين أكثر منها على المقاتلين وأهدافها في معظمها مدنية.

إعلام الحرب

بعد خمس سنوات من اندلاع الحرب وتطورها، تطور إعلام الحرب. غير أن مشاهد الدمار ولغة الدم ظلت هي نفسها. في العام 2004 كنا نتحلق حول نشرة أخبار التاسعة من التلفزيون اليمني في قرانا الصغيرة نبحث عن تفسير لأصوات التفجيرات التي نسمعها كل مساء. ومع وصول طلائع الحرب إلى جبال دخان وقرية الجابري في حدود الأرض التي نشأنا عليها، كان اليوتيوب والفيس بوك يغنيان عن انتظار نشرة المساء أو طبعة الصحيفة في اليوم الثاني.

كانت المرة الأولى التي أثبت فيها اليوتيوب حضوره في إعلام الحرب كمصدر لا يمكن إغفاله حين بث الحوثيون مقاطع لأسرى سعوديين. كان الأمر مفاجأة، ولم يشأ أحد التصديق لولا أن لغة الصورة لم تكن تكذب. استخدم الحوثيون حضوراً إعلامياً مكثفاً عبر وسائل الإعلام الجديدة ومواقع الإنترنت، وكانت بياناتهم تجد طريقها إلى الصحافة العالمية ووكالات الأنباء. وتكرر ظهور متحدثهم الإعلامي في القنوات الإخبارية. في المقابل لم يشأ المسؤولون السعوديون الحديث حتى عن

الانتصارات التي حققوها إلا في ما يتعلق بالمؤتمرات الصحافية الخاصة بمساعد وزير الدفاع.

لقد ولّد الحضور الإعلامي للحوثيين وبثهم لمقاطع فيديو تثبت عدداً من ادعاءاتهم، التي لم تكن لتصدق لولا لغة الصورة والفيديو، ولّد صورة مهولة عن حجم القوة والسيطرة التي يتمتع بها جنودهم. وفي مقابل ذلك استغلوا هذا الإعلام لتشويه صورة الجانب المقابل والحديث عن جرائم إنسانية وأوضاع مأساوية تسبب فيها القتال. والمراقب لمنتديات الإنترنت، التي كانت تتابع هذا الحدث، يلحظ في تلك التي يقف أطرافها على خط الحياد من المعركة أنهم يتلقون هذه الأخبار بشيء من التصديق.

كفاءة الحوثيين لم تكن في موقع القتال الذي استطاعوا الصمود فيه بصورة مغايرة للتوقعات، بل إن الحضور الإعلامي كان قادراً ليس على توصيف ما يجري في الميدان فحسب، وبل وفي المساهمة في كسب التعاطف وإدارة المعركة. وهو الحضور الذي زاد من كفاءته استغلالُه للشبكات الاجتماعية التي يقصدها الناس، وتسخيرُه لأدوات إعلامية بسيطة في ظل تراجع الثقة في الإعلام الرسمي. لم يكن الحوثيون يطبعون صحيفة أو يبثون عبر قناة، ولكن استخدامهم لقوة الإنترنت زاد من حجم وجودهم وانتشارهم وأوصل رسالتهم. أما الجيش السعودي وعلى العكس من الشفافية الإعلامية التي تميز بها في حرب الخليج قبل 19 عاماً، فقد كان يمارس سياسة الصمت في ظل اقتناع قادته بأن

العبرة بالنهاية هي التي سيشهدها الجميع وليس ما تبثه وسائل الإعلام.

وبينهما ظل الصحفي الذي اختار التواجد في ميدان القتال معلقاً، يخشى الاعتماد على روايات يتحدث بها جنود عاديون لا يراقبون كافة المشاهد وأقاويل يتداولها الناس وبين امتناع ضباط الجيش السعودي عن التعليق على ما يحدث. إلا في الحالات التي يتواجد فيها مساعد وزير الدفاع السعودي الأمير خالد بن سلطان الذي يبدي أريحية في الإجابة على تساؤلات الصحافيين في المؤتمرات التي كان يعقدها في جولاته على الشريط الحدودي. وعلى غير العادة كان يكفي هؤلاء الإعلاميين عناء البحث عن مانشيت ليوم الغد.

لاحقاً تجاوبت القوات المسلحة مع مطالب الإعلاميين بتخصيص مركز إعلامي وجولات خاصة، ولكن فاعلية ذلك المركز لم تكن ذات تأثير كبير، فهو لم يغير من سياسة الصمت شيئاً.

عملي مع صحيفة دولية مثل «الشرق الأوسط» أتاح لي حرية أكبر في التعامل مع الحدث، حيث إن الصحف المحلية كانت تقدم تغطية من جانب الجيش السعودي فقط وبأسلوب تعبوي. كانت محاولة الوصول إلى قراءة كاملة للمشهد تفرض أحياناً الاتصال بمصادر في صعدة محسوبة على جهة التمرد الحوثي.

وكان نشر أخبار سقوط قتلى من الجانب السعودي يثير غضب الضباط الذين يطالبون بعدم نشر هذه الأخبار مرة أخرى. وكان الرد: «حسناً زودونا بمعلومات من جهتكم!». لاحقاً صدر أمر بسحب الوفود الإعلامية والاكتفاء بالبيانات الرسمية والمؤتمرات الصحفية. كان إجراءً تراجع معه حجم التغطيات الإعلامية للحرب، وبالتالي معدل الاهتمام الشعبي. ولكن ذلك لم يمنع الصحفيين من أن يجدوا طريقهم في صياغة أخبارهم نهاية المساء وملء الصفحات المخصصة للحدث.

الأمر يبدأ بمحادثة بريئة مع جندي لا يتردد في تقديم روايات حول ما يسمعه ويشاهده من أحداث القتال. ولكن الاعتماد على هذه الرواية هو مغامرة مهنية غير محسوبة العواقب. في المقابل يلتزم الضباط الصمت في أية محاولة للعثور على معلومة جديدة، ولكنهم يبدون مرونة أكثر في نفي أو تأكيد المعلومات التي تجمع من الجنود العاديين. وهكذا تخلق قصة صحفية في نهاية المساء.

أما المصورون فكانوا يعيشون معاناة أكبر. فاتصال هاتفي لا يمكنه جلب معلومة من خط النار كما يفعل المحررون. كان من الظريف أن تجد على صدر صحيفة محلية مشهداً لجنود يحملون رشاشاتهم في حالة تأهب وتحتها كتب «جنود على خط النار» بينما الصورة التقطت على بعد 20 كيلومتراً من خط النار بصورة مفبركة! ويزداد حظ الصحيفة، سواء حين يجد القارئ أن

الصورة هي لجنود تابعين للشرطة العسكرية وليس الجيش، وهؤلاء لا يشاركون في عمليات القتال. تلك حالة من عشرات الحالات التي يحاول فيها المصورون إعادة تمثيل المشاهد التي تجري في جبل دخان والرميح والدود في موقع يبعد عنها 20 كيلومتراً. في اليوم التالي تظهر الطبعة ويستر المحررون والمصورون الأسرار!

وكان من القصور الإعلامي الكبير عدم وجود مراسلين حربيين متخصصين! كنا بالأمس نغطي أحداثاً اقتصادية ونتحدث بلغة المال، واليوم نتحدث عن إنزال عسكري وعن تقدم للكتائب وتحليق للطيران في مفردات لم يعتادها المحرر الذي اعتادت لغته على الأخبار المحلية.

ومع ذلك استطاعت الصحافة السعودية أن تؤدي دوراً كبيراً في توصيف سيناريو الحرب وتطوراتها ونشر الحقيقة، ولكن التفاصيل التي يتلهف لها القارئ ظلت مطوية في روايات الجنود مشافهة، وفي ما تنشره الصحف الإلكترونية التي تملك هامشاً أقل من المهنية. ورغم ذلك فقد كسبت عدد من هذه الصحف الإلكترونية الجولة وحظيت بقصب السبق في نشر الكثير من أخبار القتال. وكانت صحيفة «جازان نيوز» الإلكترونية قد أبهرت المشهد الإعلامي السعودي بقدرتها على متابعة الحدث لحظة بلحظة وتوفير معلومات دقيقة جداً لم تتورع معه وكالات عريقة من النقل عنها كمصدر من مصادر أخبار الحرب.

ومع ذلك ظلت المانشيتات الصحافية مملة للقارئ الذي يتلهف إلى توصيف ينقله إلى أجواء المعركة، وكان البديل هو أدوات الإعلام الجديد ولغة الصورة! فجنود الحرب لم يكونوا مجرد مقاتلين، بل تحولوا بفضل الكاميرات المرفقة بهواتفهم إلى مراسلين للحرب عبر اليوتيوب حيث عشرات المقاطع التي تصف الحرب من بدايتها إلى النهاية.

لقد كانت الحرب الحوثية ـ السعودية درساً في استخدام قوة الإعلام. فلولا الفارق العسكري المذهل الذي جعل من الادعاءات الحوثية غير قابلة للتمرير، لأقنع الحوثيون العالم بأنهم انتصروا في تلك الحرب. ففي أكثر من خبر نشروه عن اعتقال أسرى سعوديين وتدمير آليات عسكرية والاستيلاء على قرية الجابري وصلوا إلى شريحة واسعة من متابعي الحرب واستحوذوا على تعاطفهم وقناعاتهم.

ماذا بعد الحرب

صمتت أصوات المدافع وتوقفت المعارك بعد اتفاق قبل فيه الحوثيون بالشروط الستة التي وضعها الرئيس اليمني علي عبد الله صالح، ومن ضمنها التوقف عن الهجوم على السعودية وتسليم الأسرى ونزع الألغام وانتشار الجيش اليمني على طول الحدود. في مواقفها المعلنة رفضت السعودية التعامل المباشر مع الحوثيين، وكانت الحكومة اليمنية هي من تتولى مهمة إغلاق ملف الحرب. وعاد الجنود يحكون عن قصص البطولة والانتصارات. بدأت عمليات جمع المعدات العسكرية ومخلفات الحرب، ونزع الألغام التي خلفها الحوثيون في مواقع القتال. أثناء الحرب كان أفراد الجيش يدخلون إلى بيوت المواطنين ويظلون فيها، فصدرت التوجيهات بإخلاء جميع المنازل والعودة إلى مخيمات الجيش الذي بدأت بعض قواته ومعداته بالانسحاب. وخلف نقاط التفتيش والحواجز الأمنية كان سؤالنا الملتهب: متى العودة؟ وماذا بقي من الديار تحت رماد الحرب؟ خاصة وأن عدداً من هذه المنازل أزيلت أثناء عمليات شق الطرق ومهاجمة المتسللين. كما أن قرى كاملة على الشريط الحدودي قد طمست.

سؤال آخر كان حديث الشارع: هل اكتمل النصر؟ لقد كانت تجربة خمس حروب في كل مرة يعود بعدها الحوثيون إلى إشعال حرب أخرى مثار قلق للأهالي، الذين خبأوا في صدورهم خشية من عودة الحوثي مرة أخرى، في ظل إحساس بأن القضاء عليه بصورة تامة لم يتحقق. كانت الخشية من عودته من أجل الثأر بعد الخسائر الكبيرة التي أحدثتها الحرب في صفوف المتمردين.

كانت السعودية قد قلصت المخطط الحوثي وأعادته إلى نقطة البداية في جبال مران وحيدان بصعدة، وأوقفت مخططات توسعه، غير أن إعلان الحوثي انسحابه من الأراضي السعودية قد أفقد الحرب مبررها والتي أعلنت السعودية أنها جاءت لحماية حدودها وفرض سيادتها. لقد كانت حرباً ضد المتسللين، ولكن ليس أي نوع من المتسللين. فالحدود السعودية اليمنية كانت، وما تزال إلى اللحظة، تُخترق يومياً من قبل عشرات اليمنيين الباحثين عن فرص للعمل داخل السعودية. الحوثي الذي أشعل الحرب لإجبار السعودية على عدم تمكين الجيش اليمني من استخدام أراضيها تحقق له ما يريد، فلم يعد الجيش اليمني يتراجع إلى داخل الأراضي السعودية، إذ لم يعد محتاجاً لذلك بعد أن تسبب الضربات التي تلقاها التمرد في تراجعه هو، وعدم اقترابه من الشريط الحدودي.

كان القلق قائماً من مخلفات الحرب التي لم يجمع الجيش

أثناء انسحابه كل حطامها، بعد أشهر قليلة قتلت القذائف التي لم تنفجر شخصاً عاد لتفقد منزله.

اليوم وبعد مرور عام كامل على بداية الحرب عادت إلى الحدود مشاكلها القديمة. مهربو القات لم يتوقف نشاطهم للحظة حتى أثناء الحرب. ورغم آلاف الجنود الواقفين على الشريط الحدودي كانت حمولات القات تصل إلى داخل المنطقة يومياً حتى في أعنف أوقات الحرب. ولكن المهربين حينها وجدوا طرقاً جديدة يسلكونها. أما اليوم وعبر قرية الجابري، التي كانت أحد محاور القتال يمر مهربو القات متسللين عبر الأودية يغافلون دوريات حرس الحدود تماماً كما كانوا يفعلون قبل الحرب.

المهمة أصبحت أصعب، والطريق الذي يسلكه هؤلاء المهربون بات يطلق عليه طريق الموت. فهم يعبرون منطقة عسكرية محظورة ويوقّعون على محاضر موتهم قبل المرور. يروي أحد المهربين الذي يعبر هذا الطريق مرتين أسبوعياً سبب احترافه لهذه المهنة التي ازدادت خطورة بأن كل شيء مبرر في سبيل لقمة العيش. خلف الحدود يقول بأن الحوثيين ما زالوا ينتشرون في جبال صعدة. توقفوا عن القتال ولكن وجودهم قائم ولا وجود للجيش اليمني. وفي الملاحيط التي دمرتها الحرب وعادت تستعيد شيئاً من بريقها المفقود، عاد سوق القات الشهير فيها للحياة، وعاد عشرات المتسللين يعبرون وسط ركام الحرب طلباً للقمة العيش! في الملاحيط كما يروي مهربو القات

والمتسللون عبارات كتبت على المنازل التي دمرتها الحرب «هذا ما فعلته الجرائم السعودية الأمريكية»، وأخرى وضعها الحوثيون تندد بالرئيس اليمني علي عبد الله صالح وبحكومته.

محافظة الحرث اليوم لا تشبه تلك التي غادرها أهلها على عجل، أغلقوا منازلهم بأقفال ظنوا أنها ستحميها. على طول الطريق الذي سلكناه داخل المحافظة بعد عام من الحرب كانت آثار الدمار. منازل نُهبت وأخرى دُمرت. وكلما اقتربت من الشريط الحدودي ازدادت الأرض نفوراً من الحياة، وتلونت بلون الموت الذي مر من هنا. في جثث الجنود الذي ضحوا بأرواحهم من أجل سيادة الوطن، وجثث المتمردين الباحثين عن مفتاح الجنة!

السؤال الذي لم تصدر إجابته بعد... كيف ستكون خارطة الحد الجنوبي الجديدة؟

بعد أشهر من نهاية الحرب، تداول النازحون المتلهفون للعودة قائمة بأسماء القرى التي يمكن لأهلها العودة إلى قراهم. وفيها جاء أن القرى الواقعة في محيط ثلاثة كيلومترات من الشريط الحدودي ستكون حرماً للحدود وأرضاً بيضاء لن يقطنها أحد. هذه المعلومات لم تؤكدها مصادر رسمية، ولكنها تبدو منطقية في ظل أن الحدود بوضع قراها المتداخلة من الجانبين تُعدّ بيئة مثالية للمتسللين الذين يصعب كشفهم، وتسهل مهمة

المهربين حتى مع الكاميرات الحرارية التي تستخدمها قوات حرس الحدود هناك.

لقد جاءت الحرب كفرصة لتصحيح الوضع السكاني في الحدود الذي يعد أكبر العوامل المساعدة في زيادة نشاط التهريب والتسلل ويحد من فاعلية الجهود الأمنية هناك. ومن خلال العمليات التي أعقبت الحرب، يبدو تصميم الرياض على أن الأوضاع لن تعود إلى سابقها، حيث شرعت قبل بداية الحرب في بناء سياج حديدي ضخم يعزل الجارين على غرار السياج الحديدي الذي تم تنفيذه بين العراق والسعودية في شمال المملكة. هذا السياج يأتي للوقوف في وجه 600 ألف حالة تسلل شهدتها الحدود في عامين فقط! هذا الرقم فقط للحالات التي تم القبض عليها؛ ولولا نجاح نسبة كبيرة منهم في التسلل فعلياً لما استمروا في المحاولة. هذا الرقم أكثر من ثلث سكان منطقة جازان! إنه شعب يهاجر للعيش هنا طوال أيام العام ولا يعود إلا في الأعياد.

خيار التسلل لا تمنعه كثافة التشديدات الأمنية التي جلبتها الحرب أثناء المواجهات، فخلال النصف الأول من العام 2010 حاول أكثر من 80 ألف متسلل عبور الحدود وتم ضبط 6 أطنان من القات! السؤال القائم: كم هي الكميات التي تنجح في العبور؟

نحن الذين كبرنا على مشاكل الحدود التي تتجدد كل يوم

نعي أن الحلول التقليدية لم تمنع المشكلة من التفاقم. فإذا كان عامل المزرعة في السعودية يحصل على دخل شهري يعادل دخل الموظف الحكومي، فمن الذي لا يود العبور، خاصة في ظل تراجع المستوى التعليمي وارتفاع مستوى الأمية في المحافظات المحاذية للسعودية.

عبر هذا الشريط المتعرج يعبر مئات آلاف من البشر، وأطنان القات والمخدرات والسلاح، وعبره تنتقل الأمراض كما في حمى الوادي المتصدع، ويُهرّب كل شيء يمكن نقله عبر الحدود. ولا سبيل لإيقاف هذا السيل البشري إلا عبر سياج حدودي عازل، وهو ما تعمل عليه الرياض حالياً، مدفوعة بالخطر الذي يحدثه تنامي وجود القاعدة في اليمن واحتمال أن تصبح هذه الحدود منفذاً لتمرير عملياتها إلى داخل السعودية بعد أن فشلت في تثبيت وجودها هنا.

اليوم وقد فتحت الحرب المجال أمام كتابة تاريخ جديد لحدود السعودية مع الجار المضطرب، يمّم آلاف النازحين وجوههم صوب الشرق، حيث الشمس ينبلج نورها من خلف جبال صعدة، وهم ينتظرون تصريح عودتهم، ويعلمون أن صعدة الزبيب والعنب والبن الخولاني والعسل والقات الشامي لم تعد ذات الجار القديم. تاريخ آخر يُكتب على سفوح تلك الجبال! وعزم على إغلاق ملف ملتهب في البقعة الأكثر اضطراباً في البلاد!

النازحون... قصص لم تُروَ!

اندلعت الحرب السادسة في صعدة وجرَّت معها شكلاً من أشكال المعاناة لم نعتده في الحروب الخمس السابقة. إنهم النازحون. مئات الآلاف من اليمنيين الذين شردتهم الحرب وقذفت بهم في جهات الأرض الأربع يبحثون عن مأوى. كانوا هم الضحية الأولى للحرب والصورة الأبشع لها. كانت المشاهد، التي يبثها التلفزيون اليمني في إطار تعبئته الشعبية ضد حركة التمرد الحوثي، كانت تستعصي على الضمير الإنساني، وتبني تصوراً آخر لدينا نحن جيران الحرب عن أي معاناة تصنعها هذه الأصوات المتفجرة كل مساء!

لكن حين بدأت عشرات العائلات من هؤلاء النازحين بالزحف إلى داخل الحدود السعودية والتسلل بحثاً عن الأمان، كانت حكاياتهم عن الحرب والفرار أكثر بشاعة وألماً. ربما لم يكن مراسلو النشرات الإخبارية في التلفزيون اليمني يختارون سوى ألطفها.

مخيم النازحين بالمزرق (جنوب الملاحيط) كان هو المكان الذي احتوى عشرات الآلاف من هؤلاء، في خيام بسيطة التجهيز

تزدحم فيها العائلة بكافة أفرادها بحثاً عن موطئ لجسد أنهكه التعب والترحال ومشاهد الحرب. ربما كان هؤلاء محظوظون قليلاً، فآخرون لم يجدوا حلاً سوى الانتظار معلقين على الشريط الحدودي في الأودية يستظلون بالأشجار في شكل من بدائية الحياة في ألفيتها الثالثة!

في أحد أيام سبتمبر (أيلول) من العام 2009 والحرب تضطرم على الحدود، وقفت على مجموعات من النازحين اليمنيين معلقين على الشريط الحدودي. كنت في صدد الإعداد لمادة صحافية حول تطورات الحدود! غير أنه كان مشهد تفقد فيه مهنيتك، وتنحاز للضعف والحاجة، حين تروي حكايات هؤلاء. عائلة نازحة من منطقة الحصامة التي ولدت فيها الشرارة الأولى للحرب، تصف البداية بأنها كانت مطراً من رصاص حين التجأ مقاتلو التمرد إلى أوساط المدنيين هرباً من قصف الجيش اليمني!

أحد لم يكن على استعداد لدفع فاتورة حرب لم تشن من أجله. يحكي رب الأسرة وهو يصب اللعنات على التمرد الحوثي والنظام الحاكم في صنعاء على حد سواء قائلاً: «الموت لأمريكا وإسرائيل... والقنابل تتساقط على قرانا»، ساخطاً من حرب شردته من منزله حاملاً ثيابه وأفراد أسرته فحسب. هو الآن يعيش على المساعدات التي يظفر بها من القاطنين في قرى الشريط الحدودي. حال يشبهه فيه مئات العوائل التي تسد أفق

المنطقة الواقعة بين جانبي الحدود بحثاً عن الأمان من جحيم الحرب. ودعتهم والدعوات لهم بأن يعودوا قريباً إلى قراهم وتتوقف الحرب، ولكن بعد شهرين وجدتني مثلهم أشد أمتعة الرحيل بحثاً عن الأمان، ومثلي كانت كل القرى التي تتابع أخبار النازحين خلف الشريط الحدودي بشفقة ودعاء، بعد أن انفلتت الحرب خارج محيطها الجغرافي وتحول الشريط الحدودي الذي وجدوا فيها أماناً مؤقتاً إلى منطقة مشتعلة تدكها طائرات الأباتشي والمدفعية الثقيلة.

قبل أن تدخل السعودية المعركة ويتحول سكانها إلى نازحين بدورهم، كانت القرى المتاخمة للشريط الحدودي قد امتلأت بالعائلات اليمنية النازحة. احتلوا كل بقعة يمكنها أن تلم شتاتهم من أبنية مهجورة وأحواش وحتى في بطون الأودية. كان مشهداً لا يليق بإنسان صعدة الذي ظل شامخاً في جبال تعانق الغيم وتسقي أوديتها الأرض سيلاً، غير أن الحرب لا تقيم وزناً لذلك التاريخ الممتد من هدهد سليمان وعرش بلقيس؛ النجاة بالأرواح هي الحقيقة الثابتة الوحيدة التي أبقت عليها الحرب وجردت صعدة من ليالي السمر في مجالس القات ورائحة البن الخولاني.

على الطرف الآخر من الحدود، والحرب تنفث في النفوس معنى القلق والخوف والترقب، لم يخيل إلى أحد أن المشاهد التي يبثها التفلزيون اليمني سيعاد تمثيلها مرة أخرى وإن كانت بمعاناة أقل وهم سيكونون بطلها وكومبارسها.

بعد سقوط قذيفة على مركز صحي على الشريط الحدودي وقرى أخرى في محيط جبل دخان بدأت عملية نزوح داخلية. أسر ضاقت ذرعاً بالوضع الحدودي المضطرب فآثرت الانسحاب إلى قرى داخلية أكثر أمناً قبل أن تذهب ضحية قذيفة خاطئة. هل كان خيار مغادرة المحافظة والنزوح بإرادة من أهلها حاضراً، ذلك الذي لم يكن يدور في مخيلة أحد.

ولكن مع غروب شمس الثالث من نوفمبر (تشرين الثاني) حيث اندلعت شرارة الأحداث بدأت القرى الواقعة في محيط جبل دخان في النزوح بصورة جماعية. ولكن إلى وجهة داخلية أيضاً هذه المرة حيث أعد مخيم بدائي التجهيز لاحتواء قرابة 500 عائلة غادرت منازلها في أول أيام الحرب. وفي حين كان المسؤولون يؤكدون للإعلاميين جاهزية المخيم والعمل على استقبال النازحين، لم يكن أحد يرغب في السكن في خيمة! كان خياراً مستهجناً لا يناسب الطبيعة السكنية للقرويين في تلك المنطقة الذين يحرصون على بناء بيوتهم بأحواش واسعة وساترة في الوقت ذاته.

ثاني أيام الحرب وبعد أن بدأت المركبات العسكرية في الدخول إلى محيط المحافظة، كانت الحرب كما تخيلها سكان القرى، إجراءاً تأديبياً محدوداً سيجعل الحوثيين يفكرون ألف مرة قبل الاقتراب من الحدود. هل ستجبرنا الحرب على مغادرة قرانا سائرين إلى وجهة غير معلومة؟ لم يفكر أحد في ذلك، وطائرات

التوريندو والـ أف 15 تعبر سماء المحافظة وتقصف جبل دخان.

ثالث أيام الحرب بدأ فصل النزوح في رواية الحرب. بعد أن تخفى متسللون ضمن النازحين اليمنيين الذين عبروا الحدود مع بداية الحرب، أصبح الخوف من عمليات انتقامية تنفذ في أوساط المدنيين. رابع أيام الحرب بدأ الجميع يتلقى أوامر النزوح وينفذها على مضض!

النازحون اليمنيون من صعدة الذين التجأوا إلى الشريط الحدودي والقرى المتاخمة بحثاً عن حالة أمان مؤقت، وجدوا أنفسهم كمستجير من الرمضاء بالنار. عادوا مرة أخرى يشدون رحالهم، ولكن هذه المرة إلى سفر أبعد ووجهة غير معروفة، وأصبح طريق العودة إلى صعدة طويلاً ومغلقاً! مع تصاعد وتيرة الحرب انكبّ آلاف من هؤلاء النازحين مع نازحي الحرث، وكان خامس أيام الحرب مشهداً لن يفارق الذاكرة!

المشهد كما كان قبل عام وأكثر. آلاف الأشخاص، مئات السيارات العابرة، وآلاف المواشي والأغنام والإبل، والحمير التي تحولت إلى وسيلة نقل فاعلة من قبل النازحين اليمنيين الذين لم يسعفهم حظهم العاثر منذ اندلاع الحرب في المغادرة في سيارات مكيفة كما كان يفعل جيرانهم. قريتنا الواقعة في آخر المحافظة لم تتلقَّ نصيبها من أوامر الرحيل، ولكنها شهدت نفرة 6 آلاف أسرة، أذن فيهم مؤذن الحرب!

مشهد لم تنقله كاميرات المصورين التي اشتغلت برصد تحركات الجيش، ولكنه حدث ولم يكن يشبه هذه الأرض في شيء. فجأة لم تعد البيوت والقرى والمزارع التي انتموا إليها وتربّت فيها أجسادهم وأحلامهم، لم تعد آمنة بما يكفي للعيش فيها.

طول الطريق للوصول إلى محافظة المسارحة المجاورة للحرث، والتي بدأت في تجهيز مخيم لإيواء النازحين، يتجاوز 30 كيلومتراً، قطعه نساء وأطفال وشيوخ مشياً على الأقدام.

معاناة صعدة مع الحرب تراكمت لشهرين على الشريط الحدودي وانفجرت مرة عبر هذا الطريق. في نهاية الرحلة كانت حافلات الترحيل التابعة لحرس الحدود في انتظارهم ليعودوا عبر منفذ الطوال إلى حرض الواقعة داخل اليمن، وتبدأ معاناة أخرى في وطن كان يسمى باليمن السعيد.

قصص لم يروِها أحد عن نازح يمني مكفوف ربطته أمه بحبل وذهبت تمشي أمامه وهو يتبع خطواتها. مرّ من أمامنا، لم يكن يبصرنا ولكن كنا نبصر في عينيه أن الروح غالية! نازحة يفاجئها المخاض في نصف الرحلة فتلجأ إلى عمارة مهجورة تحت الإنشاء على أطراف قريتنا ويطلق وليدها الصرخة الأولى في الحياة، في توقيت لم يكن ذا حظ فيه أبداً. أطفال يتناوبون على حمار يقلهم في رحلة نحو المجهول بعد أن أصبح المعلوم

من الأرض المشتعلة رصاصاً غير مرغوب فيه. عامل في شركة للطوب في أحد الجبال المطلة على طريق النزوح يقود شويلاً لرفع الحجارة. أدركته الرحمة بأطفال أنهكهم المسير منذ الصباح الباكر، فحملهم في مقدمة الشويل المخصصة لرفع الحجارة مسافة تقربهم من هدفهم الذي لم يحدد بعد! كانت جردة حساب طويلة لحجم المعاناة التي كونتها الحرب وانفجرت مرة واحدة. والثامن من نوفمبر (تشرين الثاني) كما يذكره أهالي القرى كان يوما طويلاً اختلطت فيه كل مشاهد الإنسانية في صورتها البدائية. البحث عن الأمان! وفيها تلت الحرب ورداً من أبجدياتها التي نكتشفها للتو لأول مرة رغم أنا ظننا بأننا تعلمنا شيئاً من خمس سنوات من المجاورة.

النازحون السعوديون بدورهم كانوا جزءاً من المعاناة. كان إجراء إجلاء المدنيين عن أرض القتال من قرارات الحرب التي صنعت فارقاً. يحسب للجيش السعودي في معاركه أنه جنب المدنيين جحيم المعركة منذ وقت مبكر رغم أنها حدثت في منطقة شديدة الكثافة بالسكان. وكان من المحتمل أن يصبح وجود هؤلاء المدنيين نقطة تستغل لإضعاف تحركات الجيش وإرباك خططه.

تلقى سكان الحرث أوامر النزوح وفي أذهانهم أن الحرب ستنتهي بعد أسبوع أو أسبوعين. حملوا أغراضهم الأساسية وكأنهم ذاهبون في رحلة سفر، أقفلوا خلفهم منازلهم بأقفالها

العادية واثقين بأنها ستكون كافية للحماية. تركوها متخمة بالأثاث والأجهزة الكهربائية والذهب لعروس تعيسة الحظ نسيت تحت أصوات القصف وتحليق الطائرات كل شيء ورحلت بحثا عن الأمان.

في 10 نوفمبر (تشرين الثاني) وبعد انقضاء الأسبوع الأول من الحرب كنت مع عائلتي أقول: وداعا بيتنا. أصوات القصف التي تصم الآذان ودوريات الجيش التي تعبر في محيط القرية واهتزاز أبواب المنازل كل مساء بفعل التفجيرات على بعد كيلومترات حيث أرض المعركة، ونزوح أقرب الجيران، كلها قذفت بنا على ذات الطريق الذي شهد فيه مشهد نزوح محافظة بأكملها قبل يومين. كان صباح لم يشأ أحد أن يعيش تفاصيله، ثلاث بنات وأربعة فتيان وكلٌ ينظر في وجه أخيه، من يحزم حقائبه أولاً، لم يدم الموقف طويلاً قبل أن يحسم الأب الموقف! كانت واحدة من تلك اللحظات التي تحتاج فيها إلى برهة من الوقت حتى تتأكد أنك تعيشها فعلاً. ننزح؟ هل كانت تلك هي نهاية خمس سنوات في جوار الحرب! أتى الجواب متأخراً بعد أن انتهت اللحظة وانقضت... نعم.

تعاسة حظ رافقت أصحاب المواشي والأغنام حيث أصبحت عملية النزوح أشق وذات تكاليف أكثر، في نهاية المطاف وجدت طريقها نحو أسواق المواشي حيث بيعت بأسعار وصلت إلى 40 في المائة من أسعارها الأصلية. رغم أن موسم الحج كان على

الأبواب إلا أن السوق كان الحل الأنسب لأهم عنصر اقتصادي في قرى الحرث التي يشتغل أهلها بتربية المواشي، قبل أن تلتفت السلطات للمشكلة وتأمر بتشكيل لجان لإيواء مواشي النازحين!

ولكن حقيقة الأمر أن النازحين أنفسهم كانوا يجاهدون من أجل البحث عن مأوى لأطفالهم.. أولاً!

أمام النازحين ثلاثة خيارات، بيت قريب أو صديق، وهنا عاد الجميع ليتذكروا أي رابط في الشبكة الاجتماعية التي تضم القرويين في جازان يؤدي إلى قريب يحتمل إقامتهم لأيام معدودة. هكذا تخيلوا أنها أيام معدودة. الخيار الآخر كانت الشقق المفروشة التي بدأ الدفاع المدني استقبال النازحين وتسكينهم فيها بعقود بين مالك الشقة والدفاع المدني. لم تكن المنطقة تملك بنية تحتية في قطاع العقارات والإسكان تمكنها من استقبال ستة آلاف أسرة. امتلأت هذه الشقق مع أول فوج وصلها من النازحين! ولأن الحكومة هي من سيدفع فقد كانت العقود توقع بمبالغ مضاعفة عن أسعار الإيجار الأصلية، والشعار المبطن «مال الحكومة».

مخيم النازحين لم يكن في خيار الكثيرين، ورغم أن الصحافة المحلية برع محرروها في تصوير هذا المخيم كجنة تنتظر النازحين، إلا أن طبيعة الإسكان بصورة الخيام المفتوحة على بعضها، والطابع الاجتماعي المحافظ قد جعل المخيم خياراً

لأولئك الذين ضاقت عليه الأرض بما رحبت ممن انقطعت بهم شبكة العلاقات الاجتماعية. لم تكن سيئة هذا المخيم ـ رغم أن الاهتمام بالغ به في بداية الأحداث من قبل الجهات الحكومية ـ سوى في فكرته الأصلية، هؤلاء القرويون الذي تتسم منازلهم بالأحواش الفسيحة لا يُجيدون السكن في الخيام! ولا يقبلون بالوضع الاجتماعي الذي تفرضه.

مع دخول الحرب أسبوعها الثاني اكتمل توافد النازحين إلى بقية محافظات جازان وبدأت المنطقة تعيش وضعاً مختلفاً. خلف نقاط التفتيش آلاف الجنود يخوضون معارك تطهير الحدود، ودونها آلاف النازحين يحاولون التأقلم مع وضع إنساني جديد. وعلى ذات الشارع الرئيسي في محافظة المسارحة حيث يقع مخيم إيواء النازحين، كانت تعبر قوافل المساعدة والتموينات لساكني المخيم وتعبر قوافل الجيش المحملة بالجنود والمدرعات وعربات التموين.

مخيم إيواء النازحين

على مدخل محافظة المسارحة الجنوبي ستشاهد مئات الخيام - في الجهة الغربية من المحافظة يسودها الصمت ويعبث بها الغبار بعد مرور 14 شهراً على بداية الحرب. هنا عاشت 750 أسرة نازحة، ثمانية أشهر قبل أن تغلق السلطات المخيم الذي كان يفترض أن يكون حلاً مؤقتاً للمشكلة الطارئة التي أحدثتها الحرب. أُغلق المخيم وسط صمت إعلامي مطبق إلا من أخبار دفنتها الصحف في صفحة المحليات حول صدور توجيهات بإغلاق هذا المخيم بعد أن تحول إلى معاناة لقاطنيه بدل أن يكون عوناً. نهاية المخيم لم تكن لتشبه بدايته. صحيفة وصفته حين تم إنشاؤه بأنه مدينة ترفيهية، وحين صدر قرار إغلاقه كانت الأمطار وموسم الغبار في صيف جازان قد جعلت الحياة فيه معاناة لا تطاق.

في الوقت الذي حدثت فيه الحرب كانت محافظة الحرث تعيش نهضة عمرانية غير مسبوقة في تاريخها، فإن التحول من المنازل إلى الخيام، ومن الأسرة إلى افتراش الأرض لم يكن خياراً حاضراً في أذهان معظم من اكتسبوا لقب «نازح». الأسر

الفقيرة والذين لا يحملون جنسية سعودية بل تصاريح مؤقتة بالإقامة، اختاروا المخيم كحل مؤقت للإقامة. أو هكذا قيل لهم. ولم ترتبط كلمة مؤقت بحد زمني يفصل بين الأمل والترقب في وجوه تيمّم كل صباح ناحية الشرق وتنتظر العودة إلى قراها الأصلية؟

الأسابيع الأولى في عمر المخيم كانت تحمل شيئاً من معنى «الرفاهية» وهو العنوان الذي اختارته صحيفة محلية للمخيم، ولكنها كانت رفاهية التراب. مساعدات مادية جادت بها الجمعيات الخيرية والمحسنون من أنحاء المملكة، ومؤونات وأغذية وملابس، وحفلات سمر شارك فيها نجوم الشاشة الذين ربما لم يكن قاطنو المخيم يعتقدون أنهم بشر موجودون على الأرض. وزيارات من وزراء ونواب شاركوا النازحين دقائق من حياة المخيم وألقوا على أسماعهم وعوداً ذهبية ثم غادروا. وأما في الأسابيع الأخيرة من عمر المخيم فكانت الأمطار تدمر الفرش التي ينام عليها هؤلاء النازحون ولا يجدون عنها بديلاً، وبعضهم لجأ إلى بيع قوارير المياه التي تصرف لهم يومياً لتوفير مؤونة لأطفاله. ليست رواية تراجيدية، بل هي شهادات قاطنين في المخيم، وحال عاشها من زار هذه الخيام بين حالتين.

الأشهر الأولى كان المحررون والقنوات التلفزيونية يتزاحمون على تغطية قصة أول مولود يشهده المخيم، وفي الأسابيع الأخيرة سقط جدار على أحد قاطنيه بعد عاصفة ممطرة ومات متأثراً

بجراحه، ولم يلتفت له أحد. لم يكن المخيم حلاً مؤقتاً بل كان حالة اهتمام مؤقتة انجلت لاحقاً وظلت المعاناة.

في الأسابيع الأولى من عمر المخيم كان الشاب شايع مجرشي، صديق عمرٍ تشاركنا معاً حياة القرية قبل أن ننزح في يوم واحد، إلى وجهات شتى، كان يحتفي بصورة ظهرت له في صحيفة محلية مع وزير الشؤون الاجتماعية وهو جالس في خيمته. يومها احتفى بتلك الصورة وبوعود الوزير بتوفير كل المتطلبات وسبل الراحة للنازحين والقيام على ذلك أربعة وعشرين ساعة دون توانٍ. كان المخيم حينها يعيش أزهى حالاته. كنت أتصل بذلك الصديق ليصف بأنه لا ينقصه شيء إلا العودة إلى منزله بعد أن تنتهي المعارك. حين أصبحت الوجبات الغذائية المقدمة يومياً لا تختلف طوال أيام الأسبوع انتقض وعد من تلك الوعود الذهبية التي سمعها مشافهة دون وسيط، وحين ذهب يشتكي إلى المشرفين على المخيم من وجود صرصار في الوجبة الغذائية التي قدمت له انتقض وعد آخر، وحين أصبح نصيبه من الماء يومياً ست عبوات من تلك التي تباع بمبلغ نصف ريال في البقالات خارج المخيم بعد أن كانت توزع بغير حساب انتقض وعد آخر، وحين داهمت الأمطار خيمته وعاثت بأغراضها فذهب يطلب فرشاً جديداً ولم يجد، انتقض وعد آخر، وحين سقط على جسمه جدار أقامه المقاول على عجل فلم يحتمل زخات مطر تقاومه المنازل الشعبية التي بنيت منذ عشرات السنين انتقض

آخر الوعود وغادر المخيم للمرة الأخيرة بعد أن أصيب بكسر في الحوض. وفي مستشفى صامطة الذي تحول إلى واجهة الإعلام المشغول بتغطية الحرب، حيث كان هو المستشفى الذي يُنقل إليه المصابون في المواجهات العسكرية، في ذلك المستشفى ونتيجة إهمال طبي في تطهير جرح نتيجة حادث، التهب جسده وتسمم دمه وتوقف القلب عن العمل وفارق الحياة!... لم يبق ثمة وعد لينتقض.

شايع الذي ظهر في أول أيام النزوح بجانب وزير في إحدى الصحف، لم يكترث لموته أحد من أولئك الذين احتفوا به تحت أضواء الفلاشات. كتبت عنه قصة صحافية نشرتها الشرق الأوسط، ولم يكلف أحد من مسؤولي المخيم أو وزارة الصحة، حتى عناء نفي الخبر كما هو عادة هؤلاء المسؤولين أو التعليق عليه أو تأكيده. عاد إلى قريته التي نزح منها وظل يؤمل نفسه بالعودة إليها وعاد جثة محمولة.

أتذكر حديثاً مع مدير أحد المستشفيات في المنطقة ذكر فيه بأن المخيم في هيئته الحالية مخالف لكل الأساليب الصحية المعتبرة دولياً في إيواء النازحين، وأنه بيئة مثالية لانتشار الأمراض والأوبئة. بقيت تلك الكلمات حديث سمر في أحد مجالس القات التي يتداول فيها النازحون قصص الحرب ومعاناة النزوح.

في حين كانت فكرة السكن في مخيم، ساقطةً من اعتبارات معظم النازحين واصلت السلطات تثبيت الفكرة وعدم إيجاد حلول لها بعد أن اتضح أن خيار عودة النازحين لن يكون متاحاً في المدى القريب، وهو الأمر الذي أكده توجيه خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله آل سعود ببناء عشرة آلاف وحدة سكنية للنازحين؛ إلى جانب المخيم الذي أقيم على عجل وبصورة أقرب ما تكون إلى العشوائية، تم إنشاء مخيم آخر لم تختلف طبيعة السكن فيه ولكنه أصبح أكثر تنظيماً، وزود بمدرسة ملحقة للنازحين وبمرافق أخرى تكمل خارطة الاحتياجات بأقل مستوى من الرضا. تحول المخيم من حل مؤقت إلى حالة دائمة وكان المؤقت هو حالة الاهتمام التي وجدت.

من حسن حظ، أو ربما سوء حظ النازحين أن الحرب نشبت في فصل الشتاء حيث تعيش المنطقة أجواء دفء رائعة ولا تتساقط الأمطار فيها بغزارة كما يحدث في فصل الصيف. لذا جاء الاختبار لصلاحية المخيم للعيش لاحقاً حين بدأ موسم الغبار والأمطار واشتدت الحرارة. ورغم ذاك لم يتم الاقتناع بعدم صلاحية مبدأ العيش في خيمة كحل لاحتواء 750 أسرة نازحة في محيط جغرافي ضيق جداً إلا بعد فترة ثمانية أشهر. وكان الحل بتقديم مبالغ مادية مقابل إخلاء الطرف والتعهد بعدم تقديم أي مطالبات وبدء رحلة نزوح أخرى بحثاً عن مأوى.

داخل الخيمة كان العيش يتم بالكفاف والرضا بأقل مستويات

الحياة. بالملل يقطع سكان المخيم يومهم ونهارهم بعد أن عطلتهم الحرب عن أعمالهم اليومية وسدت المعونات التي كان يحظون بها شيئاً من حاجتهم. كل خيمة كانت تحتضن أسرة واحدة، ذات البيئة وذات المشاهد يومياً، وذات الأحاديث والآمال بالعودة والكره لهذا المكان.

شعبياً وفي ذاكرة النازحين كان التذمر والغضب من الاستمرار في إيواء أسر النازحين التي قبلت بالمخيم كخيار وحيد على مضض يتزايد يوماً بعد يوم، يزيده تراجع مستوى الاهتمام وتراجع فلاشات المصورين التي تصور الجهود المبذولة.

الوجبات الغذائية التي تقدم للنازحين ـ حيث يحظر الطبخ داخل المخيم ـ كانت تحظى بالتنوع في البداية، وفوق مستوى ما يستطيع الكثير توفيره في منزله على مدار الشهر، ولكنها تحولت مع تقادم عمر المعاناة إلى ذات الوجبة التي تقدم كل يوم. ومعه أصبحت عبوات الماء توزع بكمية محدودة فلا يتجاوز نصيب الفرد الواحد لترين من الماء يستعملها في أغراض شربه وقهوته وتجهيز حليب الصغار.

في الأيام الخوالي التي كانت توزع فيها هذه العبوات دون حساب، يلجأ أصحاب الحاجة إلى بيعها خارج المخيم لتوفير الاحتياجات التي لا يكفلها المخيم ومن ضمنها حليب الأطفال وحاجياتهم.

حل موسم الأمطار لينهي فصلاً كبيراً من المعاناة ولكن ليس سلمياً. بل حين أوصلها إلى سقف الصبر والاحتمال، فهذه الخيام لم تكن لتصمد تحت زخات المطر قبل أن تتحول الحياة هناك إلى ما يشبه المستنقعات، موسم الغبار أيضاً ساهم في كشف عورات المخيم وزيادة المعاناة.

وقبل أن يحل شهر رمضان كانت السلطات قد بدأت فعلياً عملية إنهاء وجود النازحين في المخيم. وبدأت تلك العملية بإخراج السعوديين القاطنين في المخيم، وهم يمثلون نسبة قليلة من مجمل القاطنين بموجب تصاريح إقامة مؤقتة بناء على وجود معاملات للحصول على الجنسية لدى الأحوال المدنية. إمكانية تسكين أصحاب التصاريح في المخيم فتحت الباب أمام مزوري هذه التصاريح الورقية التي يسهل تزويرها ليقدموا بطاقات دخول لأسر كانت ترى في المخيم جنة، مقارنة بجحيم التشرد خارجه، ومعظمهم من النازحين اليمنيين.

انتهى تاريخ المخيم غير مأسوف على ذكراه، بتقديم معونات مادية لكل أسرة ومطالبتها بأن تجد لها وسيلة للسكن خارجه بأي طريقة كانت وإخلاء المسؤولية!

ومعه انتهت ثمانية أشهر ظنها قاطنو المخيم أسابيع مؤقتة، وما زالت آثار المخيم في غربي محافظة المسارحة قائمة لتشهد على فصل من معاناة نازحي جازان، فصل لا يذكره أحد بخير،

وهم يعتقدون أن حلول حياة كريمة بصورة أفضل كان يمكن أن تقدم، عائدين بالذاكرة إلى حرب الخليج وكيف أن أساليب الإيواء حينها كانت أكثر تطوراً رغم أن الزمن متأخر بعشرين عاماً!

نازحون بلا مخيم

في مخيم النازحين كانت تعيش 750 أسرة، وخارجه أكثر من 5 آلاف أسرة! ومع ذلك لا يتبادر إلى ذهن أي متابع للأحداث في الجنوب ـ لدى الحديث عن النازحين ـ سوى مخيم النازحين. كان تغطيات الإعلاميين للحرب تتنوع بين حديث عما يدور في الجبهة وحديث عما يدور في مخيم النازحين، وبهذا تحول المخيم إلى أيقونة رمزية تمثل جميع النازحين.

الأصدقاء الذين يكتشفون بأني أحمل وسام «نازح» سؤالهم الأول: كيف هي حياة المخيمات؟ ويأتي الجواب دائماً أن هذا المخيم لا يحتضن سوى 20 في المائة أو أقل من إجمالي النازحين.

في عمارة في مراحلها الأخيرة من الإنشاء، لم تكن صالحة تماماً للحياة، ولكنها خيار مقبول حين تضيق الخيارات، حطت أسرتي مع أسرتين إضافيتين رحالها في رحلة النزوح واختارت العيش هناك. لم أكن مع أسرتي طوال الوقت، حيث ظروف الدراسة تفرض العودة إلى المنطقة الشرقية، غير أن الحال لم يكن يسرّ أحداً. كنا نجتمع بآمال العودة وترقب أخبار نهاية

الحرب. وكل يوم تزداد فيه مدة الإقامة طولاً نقتنع أن الاستثمار في هذه العمارة بتجهيز بصورة أفضل ليس خياراً خاسراً، فالعودة لن تكون غداً أو بعد غد. كنا 12 أسرة تشكل قرية واحدة من 240 قرية نزح أفرادها، توزعنا على 6 قرى أخرى لنجد محيطاً كافياً للعيش! هذه لم تكن قصة خاصة بنا بل هي قصة بقية النازحين الذين إلى لحظة كتابة هذه السطور يعيشون ذات المعاناة، ممن ينتظرون الأعياد ليلتم شملهم وقد كانوا يعيشون في محيط واحد.

كانت المشكلة الأساسية للمنطقة أنها لا توجد فيها عقارات كافية لاستيعاب كافة النازحين، رغم تحمل الحكومة لتكاليف أي عقد يعقده النازح مع صاحب العقار في الشقق المفروشة. ولكن تلك الشقق لم تستوعب سوى 13 ألف نازح وفق إحصاءات غير رسمية. كان حلم الحصول على شقة ليس حلاً نهائيا للمشكلة إذا كانت هذه الشقة المكونة من غرفتين ومطبخ وصالة ستحتضن أسرة من 15 فرداً. في حين أن الحكومة لن تدفع سوى عقد إيجار واحد لكل عائلة.

كانت وما تزال حياة قائمة على الكفاف، وفي انتظار ساعة العودة التي لم تحن بعد. ورغم مرور 14 شهراً على معاناة النازحين ما يزال هذا التساؤل طرياً وجديداً في كل يوم، تساؤل بدأ منذ اللحظة التي أغلق فيها النازحون بيوتهم واستأمنوا أقفالهم على ما تركوه وراءهم. لم يجبهم أحد أن العودة لن

تتحقق، ولم يجبهم آحد أنها سوف تكون قريباً. كل الإجابات من نوع «علّ وعسى». في ظل عمليات جراحية مطولة يتعرض لها الشريط الحدودي لتصحيح وضعه المضطرب.

بدأت الحكومة بتوزيع مساعدات نقدية على النازحين بواقع ألف ريال لرب الأسرة وألف ريال للزوجة ومائتي ريال للأبناء بصورة أسبوعية كمعونات بديلة للمعيشة والسكن، ومعها بدأ مسلسل من الفساد والتلاعب في الحصول على هذه المعونة من غير مستحقيها.

كانت وزارة المالية والدفاع المدني تطلب من النازح إحضار مشهد من شيوخ القبائل بأنه من المتضررين من أحداث الحدود، وبموجبه يتم إدراج اسمه في سجلات المستحقين للمعونة. ببساطة كانت وزارة المالية تضع مالاً سائبا وتقول للناس لا تسرقوه. فالعودة من نظام الدولة إلى القبيلة فتح الباب أمام عمليات تلاعب كبيرة، وخاصة في الدفعات الأولى من التعويضات التي تم صرفها. جار في القرية التي لجأنا إليها نازحين وجدناه يتقدمنا في طابور استلام التعويضات. لم يكن لوحده ما دام أن الأمر يستلزم الحصول على تزكية من شيخ القبيلة، وهو أمر متاح بوسيلة أو أخرى، مئات التعويضات المستحقة للنازحين ذهبت لغير مستحقيها بسبب خلل في الآلية التي اتبعتها وزارة المالية والدفاع المدني، وحين أرادوا معالجة ذلك الخلل في الدفعات اللاحقة حرموا النازحين المستحقين للتعويضات من حقوقهم

حيث أوقفت الوزارة صرف المعونات للعزاب الذين تقل أعمارهم عن ثلاثين عاماً إلا في حالة وفاة الأم أو الأب!

هذه التعويضات التي كانت تصل إلى 10 آلاف ريال في الشهر للأسرة الواحدة كانت إلى حد ما كافية لمواجهة متطلبات الحياة الجديدة وتوفير المساكن التي أشعلت سوق العقار. ولكن بعد أن طال مسلسل وجود النازحين دون تغيير في أوضاعهم رغم مرور 7 أشهر على نهاية الحرب، تراجعت الوعود البراقة بالتعويضات وإيواء النازحين. تم تخفيض هذه التعويضات إلى ما يقرب من النصف، والاكتفاء بإصدار شيك بمبلغ 30 ألف ريال للأسرة التي يقل أفرادها عن عشرة أشخاص و35 ألف للأسرة التي يزيد أفرادها عن ذلك الرقم دون تقدير لمستوى تلك الزيادة. وهذا الشيك يغطي فترة ستة أشهر، فيصبح مجموع ما يتحصل عليه النازح في السنة 60 ألف ريال للأسرة الواحدة. في الوقت ذاته أخلت الوزارة مسؤوليتها من دفع عقود إيجار الإيواء في الشقق المفروشة وتركت الأمر بين النازح والمؤجر وخمسة آلاف ريال تهبها له شهرياً! وأُغلق مخيم النازحين.

حينها لم يكن أحد المواقع الإخبارية يبالغ في وصفه بأن نازحي جازان بدأوا الرحلة الثانية من النزوح! برغم أنهم رضوا بالعيش بالكفاف وانتظار إنجاز الوحدات السكنية التي وجه بإنشائها خادم الحرمين، والتي كانت 10 آلاف وحدة حين الإعلان عنها و6 آلاف لحظة توقيع العقد. ذهبت 4 آلاف وحدة

سكنية بحجة أن هذه الوحدات المتبقية ستكون كافية لاستيعاب النازحين.

الأسر التي كانت تقطن في الشقق المفروشة سُحبت منها العقود وأعطيت مهلة شهر، ثم صدر قرار إخلائهم ليلة عيد الفطر المبارك. مالك هذه الشقة يطالب إيجاراً يومياً يصل مجموعه إلى ستة آلاف ريال في الشهر لأن تجارته تقوم على هذا المبدأ، والمعونة الشهرية للسكن والإعاشة تتوقف عند حدود 5 آلاف ريال تصرف كل ستة أشهر، وليس ثمة خيار آخر للسكن!

الأسر التي غادرت الشقق المفروشة وقاطنو مخيم النازحين بدأوا رحلة نزوح أخرى. وجدت القضية فرصتها في الظهور في الإعلام المحلي. وشيء لم يتغير إلى اللحظة!

لم يكن الوطن واحداً كما رددنا في كتب الوطنية وحصص التعبير في المدارس، خارج حدود تلك القرى التي تركناها خلفنا كل ما واجهناه هو رحلة متصلة من التشرد. وخلال عام اضطر النازح الجازاني إلى تغيير مسكنه أربع أو خمس مرات. في كل مرة تتبدل الأسعار وظروف المعيشة، ويزيد جلادو العقار من سياطهم بحجة أن هؤلاء يجنون تعويضات طائلة من الحكومة! وزارة المالية تواجه تساؤلات النازحين حول خفض مستوى التعويضات إلى ما دون تغطية تكاليف معيشة أغلى من غيرها والإجابات هي أن فعلنا ما بوسعنا ونتبع توجيهات رسمية.

لم يكن الوطن واحداً في تجربة نازحي جازان، وقد تحولت حالتهم الإنسانية التي ساقتهم إليها ظروف خارج التقدير والتدبير إلى لفظة عنصرية. لم يعد «نازح» مجرد وصف بل تحول إلى وصف عنصري للتفرقة بين مجتمعين يعيشان في ذات القرية. أخ لي في المدرسة التي انتقل للدراسة فيها لم يجد بداً من الخروج عن طوره الهادئ واستخدام لغة اليد مع زميل له في ذات الصف يعيره بأنه «نازح». قريبة لي تراسلني باكية تقول في كل صباح أتجه فيه نحو الكلية أفكر في مواجهة عبارات الاتهام العنصرية في قدر لم أختره! حالات ربما تكون فردية أو تشير إلى ظاهرة تشكلت ولكنه اختبار حقيقي للوطنية في صورة تجربة وليست مجرد شعارات.

في انتظار العودة

في ليلة عيد الفطر المبارك كانت هواتف النازحين النقالة تستقبل رسائل تهنئة بشكل مختلف. الدعوة إلى تجمهر أمام نقطة التفتيش الواقعة على مدخل محافظة الحرث مصرين على الدخول وأداء صلاة العيد في قلب المحافظة، وكانوا قد نجحوا في عقد إفطار جماعي داخل المحافظة في وقت سابق. تجمهر امتد من ساعات الصباح الأولى، كان صوت النازحين فيه واحداً «لقد فاض الكيل»، فكل القرارات المتلاحقة بشأنهم تزيد الحالة صعوبة.

يعلم هذا النازح أن ثلاث مدن سكنية يتم العمل على إنجازها خلال سنتين لاحتواء النازحين، وأن لجان حصر المساكن المتضررة من الحرب وإعادة تأهيل المحافظة تتم على قدم وساق، وأن الموضوع يحظى باهتمام رسمي في كل المستويات. ولكنه مشغول باللحظة التي يجد فيها نفسه يعاني كل يوم صعوبات حياة لا يقوى وحده أن يجد لها حلاً، هو يقولها بالصوت العالي أن إقامة مخيم ليس حلاً، وأن إبقاءه كحل لثمانية أشهر متتابعة ليس حلاً أيضاً. يثق أن حلولاً مستعجلة كان يمكن أن تبذل لتصحيح وضع لم يختره هو ولم يخطط له.

في مجالسهم اليومية يتناولون هم العودة أملاً ويأساً وكابوساً. وكل شائعة أو خبر ينقله أحدهم يستشري كالنار في الهشيم ويصدقه الجميع، إلى أن تصدر شائعة أخرى يزجون بها الوقت.

بعد انقضاء الحرب، بدأت السلطات بالسماح للنازحين بالدخول إلى قراهم لتفقد منازلهم، وكانت المفاجأة أن الجدران وحدها بقيت. تجولت في محافظة الحرث بعد مرور عام على انطلاق الحرب، فكانت الأرض قد نهبت! المحلات التجارية والمؤسسات الحكومية والمساكن. منازل تُركت مجهزة بالأثاث والأجهزة الإلكترونية والذكريات، عادوا إليها وقد أصبحت قاعاً صفصفاً. مَن المتهم، قد لا يهم، ولكن أين الأجهزة الأمنية من مسؤوليتها في الحفاظ على ممتلكات المواطنين. صديق لي يتحدث فيقول تركنا في منزلنا ثمانية مكيفات والعديد من الأجهزة الإلكترونية، عدنا فوجدنا الجدران وحدها. والحال في روايات العشرات من المواطنين الذين عجل بهم الخوف لمغادرة منازلهم يظنون أنها رحلة مؤقتة، وأن منازلهم ستبات آمنة، ولكن الوضع الذي كشفت عنه الحرب كان صادماً للجميع! الاتهامات توجه في كل جانب ولكن التحقيقات لم تبدأ بعد. وفي فم كاتب هذه السطور... ماء!

هل كان وضعها استثنائياً... أم أن درساً آخر من أبجديات الحرب كما تحدث في كل مكان؟

هذه الأيام تبدأ الجهات الحكومية بحصر أضرار المواطنين،

وقد انتهت من معظم هذه المهمة. وكما هي لغة الوعود ستقدم تعويضات رسمية عن كل الأضرار التي أحدثتها الحرب في ممتلكات المواطنين.

فصل آخر من المعاناة تعيشه القرى الواقعة على أطراف المحافظة، والتي تبعد مسافة تتجاوز عشرة كيلومترات، بعد أن حاول أهلها العودة حيث لم تكن قراهم داخل محيط الخطر. إحدى هذه القرى كانت قريتي التي حصل أهلها على إذن من إمارة المنطقة بالعودة، كون نزوحهم لا يخدم أحداً وهم يعيشون في منطقة خارج محيط منطقة العمليات العسكرية المحددة بعمق عشرة كيلومترات.

عادت أسرتي إلى قريتها في بداية صيف 2010 مع بداية إجازة المدارس واستعادت حياتها بصورة طبيعية كما كانت قبل النزوح! كانت الإجازة الصيفية بمثابة شهر عسل بين الجهات الأمنية وسكان هذه القرية المسماة بـ «الداسة». ولكن وبعد انقضاء الإجازة أصبح قاطنو هذه القرية والقرى المحيطة بها تحت ضغط من الجهات الأمنية بوجوب المغادرة، وأن الإذن بالعودة لم يصدر بعد! القرويون الذين ذاقوا مرارة تجربة النزوح لم يرضخوا لهذه الضغوطات، فكان الإجراء الحكومي بقطع التيار الكهربائي وإعادة قاطنيها إلى عهد ما قبل أزمة حمى الوادي المتصدع قبل عشر سنين، ومعه عادت القرية إلى استخدام المولدات الكهربائية والرفض القاطع للمغادرة!

حجة أخرى تسوقها الجهات الأمنية بأن عودة الحياة إلى هذه القرى ستنعش عمليات التهريب والتسلل غير النظامية من جديد، رغم أن هذه العمليات لم تنقطع حتى أثناء الحرب!

شد وجذب يومي تقاوم به أسرتي طلبات الجهات الأمنية بالمغادرة وتتمسك بقرية هي الوطن، حتى وإن أغرقها الظلام. فثمانية أشهر من النزوح لم تكن سوى تجربة عززت القناعة أن هذه القرى المتناثرة حول الأودية المعزولة من كل شيء إلا المشاكل الكبرى التي تعيدها إلى واجهة الأحداث مثل حمى الوادي والمتصدع والتمرد الحوثي، هي خير مما سواها!

اليوم يقطع إخوتي الصغار في رحلتهم المدرسية كل يوم مسافة 15 كيلومتراً في طريق ترابي يعد السير فيه قطعة من العذاب، يتوقفون كل ظهيرة أمام نقطة تفتيش يسائلهم جنودها من أين قدمتم وإلى أين تذهبون! في وضع لا يشبههم فيه أحد.

ربما هو فصل آخر من أبجديات الحرب! وقصة واحدة من عشرات القصص التي لم تُروَ.

أما بعد،

حرب ونزوح وانتصار. حدود ملتهبة تنتظر مشرطاً أمنياً يجتث داءها ويعيد إلى قاطنيها الأمان، وأسئلة يومية في انتظار العودة على شفاه ستة آلاف أسرة أنهكها العيش في انتظار.

لم تكن هذه الصفحات سوى محاولة لتوثيق تجربة عاشها كاتب هذه السطور منذ كان مراهقاً وشبّ عليها وهي جرح نازف لم تنقطع. ليس وصفاً للخطة العسكرية التي أديرت بها الحرب، وليست كتابة للتاريخ، وليست منشوراً سياسياً يحلل الوضع لمنطقة استعصت على كل التحليلات على حدود الجارتين!

تجربة أرفق بها السيناريو العريض للأحداث، ودونها تمتد تفصيلات كثيرة لكل يوم تعيشه قرى الشريط الحدودي، بين مهربين ومتسللين وتجار مخدرات وإرهاب عابر للحدود، وقصص كنا نعيشها ببساطة القرويين كل يوم قبل أن تأتي الحرب لتكشف الغطاء عن الصندوق الملتهب الذي كيفنا أنفسنا للعيش فيه. نظن أن القرى التي تفترش التراب وادعة لا تسأل شيئاً إلا اكتمال مشاريع التنمية في جوانبها وليلة ماطرة تعيد إليها بهجة الحياة وسلاماً يدوم!

محاولة توثيق لتجربة استثنائية في التاريخ السعودي لم تحظَ سوى باهتمام سطحي لا يتجاوز مانشيتات الصحف على صفحة لشهر واحد هو عمر الاهتمام بأزمة كانت تتولد منذ خمس سنوات وأكثر!

ليس فيها كل الحقائق، فيها أكبر من أن تشملها تجربة شخص واحد، والحاجة ملحة لعملية توثيق جماعية من كل أطراف الحرب والنزوح والمراقبة! في انتظار فجر تشرق فيه

قرى الحد الجنوبي في جازان على صفحة أخرى من تاريخ جديد.

في خاتمتها صلوات على أرواح الشهداء في جبل دخان والدود والرميح والجابري الذين ماتوا ذوداً عن الحدود، ودعوات أمل للنازحين المنتظرين لخبر جديد عنوانه العودة إلى القرى التي تربطهم بها ذاكرة السيل ورائحة التراب وأحاديث السمَر في ليالي القات!

وأمنيات لليمن أن يعود سعيداً، وأن تعود صعدة ذلك الجار الذي تمطر السماء على جباله فيغسل أرضنا بالمطر، ويبعث إلينا بالوطن في صندوق عنب أسود أو قارورة عسل أو رائحة البن الخولاني في دلة قهوة!

الفهرس

«قراءة في الحرب وفي أحد أبشع آثارها... الدمار والنزوح عن الأرض.

النزوح كان إحدى قصص الحرب المؤلمة.

ثلاثة اتجاهات أمام الهاربين، أولها كان مخيم النازحين وآخرون وجدوا الأمان في البقاء معلقين على الشريط الحدودي بحثا عن الأمان...

كانت البيوت المهجورة والأحواش في تلك القرى تزداد يوما بعد يوم بعشرات الأسر النازحة التي تحكي عن وطن جميل خلف الحدود، كان في يوم من الأيام سعيداً.

كان من المؤلم حقا أن تستمع إلى مواطن يعلن براءته من حرب، هو ضحيتها الأولى...

في ساعات الخوف ارتحلوا هربا من نيران القصف ورحى الحرب وتركوا خلفهم كل ما يملكوه، وعادوا إلى مربع الحياة الأول صفرا من كل شيء إلا أرواحهم وأملهم في الحياة.

يتجه الطريق جنوبا، وتبدأ الحرب تكشف عن أبشع ما تركته في هذه القرى التي يدمن أهاليها السمر والعشق والفرح، هم اليوم استبدلوه بالانتظار والأسئلة!

نتوقف على طرف وادي «دهوان» حيث تقع أشلاء قرى كانت تنتفض حياة ومغنى. مزارع ما تزال تنتظر الحصاد منذ عام، وصمت يسكن القرى كأنها المقابر. ودون اختيار يجتاحك الحزن على تفاصيل لم تعد توجد إلا في الذاكرة!».


ISBN 978-9953-566-24-5

